محمد الفخراني

مزاج حُر

رواية

الدار المصرية اللبنانية



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

مزاج
حُر

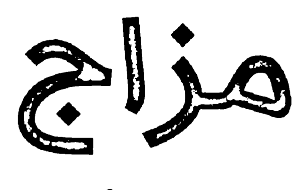
رواية

الفخراني، محمد عبد الرحمن إبراهيم .
مزاج حر: رواية / محمد عبد الرحمن إبراهيم الفخراني .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2018.
192ص؛ 20 سم.
تدمك: 6 - 158 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 1635 /2018

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: يناير 2018م

محمد الفخراني





رواية

الدار المصرية اللبنانية

أَرقصُ مع دهشتي، شغفي، وأحلامي.



حلم كبير.

أحد أحلامي الكبيرة أنْ أتجوَّل في العالم، كنت أُؤَجِّل هذا الحلم لانشغالي بكتابة رواية أو قصة ما، أقول لنفسي «حسنًا، بعد هذا الكتاب»، أنتظر أيضًا أن يتوفر لدى بعض المال الكافي، لكني اكتشفْتُ أني لن أنتهي أبدًا من الكتابة، هناك دومًا ما أكتبه أو أفكر في كتابته. وبالنسبة للمال، يبدو أنه لن يتوافر بشكلٍ كاف في وقت قريب، وما معني «مالٌ كافٍ؟!»، أنا أريد أن أتجوَّل مثل متشرِّد وليس سائحًا، لستُ في حاجة لما يُسَمَّى «مال كاف»، يمكنني أن أتدبَّر أمري خلال تجوالي بأن أمارس أعمالاً لا تستمر غير ساعات قليلة، وتُوفِّر لي بعض النقود أو الطعام.

كانت فكرتي الأساسية أن آكُلَ خلال تجوالي من الطعام الحُرّ الموجود على هامش العالم، أشرب من مائه الجاري، ربما أقطفُ شيئًا مما يَنبُتُ بالأرض وليس لأحد، ألتقط ثمرة طافية فوق نهر،

كسرة خبز موضوعة في نافذة للعابرين، أنام إلى جانب جدار، في حديقة عامة، على شاطئ نهر، بحر، أو وسط متشرِّدين، فلا أكون في حاجة حتى إلى أن أعمل تلك الساعات القليلة.

تُلهِمُني حياة التشرُّد والتجوال، تستهويني إنسانًا وكاتبًا، كنت أعرف أني سأبدأ حياتي الأدبية برواية أو قصة عن الإنسان، بَشَرٌ يلاعبون الحياة وتلاعبهم، وأجمل فترة في حياتي حتى الآن هي ما بعد انتهائي من دراستي الجامعيَّة، قبل كتابة روايتي الأولى، جرَّبْتُ في هذه الفترة جانبًا من حياة التشرُّد، ربما ليس الجانب شديد القسوة، إنما تشرُّدُ شابٍ ليس مُتشرِّدًا بالأساس، لم أُرغَم بشكل كامل على هذا النمط من الحياة، بل كان نتيجةً لاختياراتي، وكلها اختيارات عرفْتُ من البداية أني سأدفع ثمنها، لم تستهْوِني أبدًا الأشياء المجانية.

في هذ الفترة كنت أُنفِّذ أيَّةَ فكرة تخطر على بالي، تنقَّلْتُ بين أعمال صغيرة كثيرة، بائع ملابس مُتجوِّل، مساعد خبَّاز، رجل أمن للمحلات في الفترات الليليَّة، بائع أسماك متجوِّل، وغيرها، لم أهتم أبدًا بما كنت أحصل عليه من نقود، أردْتُ فقط أن أُعبِّئ نفسي بالعالم، أعيش التجربة، راقبْتُ الحكايات، وتركْتُ نفسي لها، لم أُفوِّتْ شيئًا، تعرَّفْتُ إلى أصناف عديدة من البشر، مرَّتْ أمام عينيَّ قصص متنوعة.. منها حب، فقر، سعادة، وجوع، عِشْتُ أوقاتًا لم

يكن لديّ فيها، بالمعنى الحَرْفي، أي مال أو طعام، كنت أكتشف نفسي بسرعة، كأني أتحوَّل من شخصية إلى أخرى، أتساءل «هل أنا الشخص نفسه؟»، وأدور مع التجربة، ليس هناك وقت للتوقُّف، أرى في نفسي ما لم أتوقَّعه، أبتسم وأقول «شكرًا للتجربة».. تنقَّلْتُ بين مدن وقرى كثيرة، شوارع منسيَّة، مساحات ليست محسوبة على واقع أو خيال.. روحي مفتوحة عن آخرها للعالم، أقضي مُعظَم الليل في المقاهي الفقيرة حول محطات السكك الحديدية في انتظار القطارات الليليّة الرخيصة، وأراقب المسافرين الفقراء الذين يدخلون المقهى، أتجوَّل في الشوارع الجانبية حول المحطات والمقاهي باحثًا عن شخصيات عجائبية، لا يمكنك أن تصادفها خلال النهار، هم عِيال الليل، لم يُخِفْني أبدًا سلوكهم الغريب، وحركاتهم المُفاجِئة، اعتبرْتُ نفسي منهم، أنام في اللوكاندات الفقيرة المجاورة لمحطات السكك الحديدية، حيث برد شديد أو حَرّ شديد، ويتجمَّع في الغرفة عشرة أشخاص أو أكثر، لا أعرف أيًا منهم، ربما بينهم لِصّ أو قاتل أو مجنون، اعتبرْتُ الجميع مسافرين عابرين مثلي.

وعندما مارسْتُ عملاً يناسب شهادتي الجامعية، ازداد سفري، وحافظْتُ على روح التشرُّد بداخلي وفي أدائي، ساعدَتْني طبيعة عملي، كنت رغم استطاعتي المبيت في فنادق مريحة، حيث

يمنحني عملي هذا الامتياز مجانًا، أنام بدلاً من ذلك في بيوت للشباب، خيام، معسكرات داخل الصحراء، وفي مسافات بينيَّة على الحدود بين الدول، فأرى مُهَرِّبي الحيوانات والطيور والبضائع، تُجاورني تجمُّعَات عقارب، أفاعٍ، أو شياطين، وعليّ أن أتجاهل هذا كله، أتجنَّبه، أو أتفاهم معه، حتى أنتهي من عملي، قضيتُ الليل مع قُطَّاع طُرُق، قَتَلَة، لصوص، عُمَّال يحفرون الأرض، رواة حكايات، موسيقيِّين متجوِّلين، فنانين تلقائيين، رحَّالة، أصوات كائنات مجهولة، عيون غامضة تلمع حولي، ظلال، سماء قرية مَلْأَى بالنجوم، وأخرى بعيدة معتمة، قمر مخيف، أو حالم، غناء طيور، تلال وأشجار تُغَيِّر أشكالها بين لحظة وأخرى، نداءات أو تحذيرات قادمة من جوف العالم، عواصف من رمال أو أمطار، كل هذا كان يُحييني إنسانًا وكاتبًا، يُشعرني أنَّ العالم موجود، وأني موجود فيه.

ألعاب.

خَطَّطْتُ أن أبدأ تجوالي في العالم عند وصولي الأربعين من عمري، والآن أنا في الثانية والأربعين، لاحظْتُ في وقتٍ ما أنَّ كثيرًا من الأشياء التي أتمنَّاها تتأخر عني قليلًا، ربما عامًا أو عامين، لكنها تُعوِّضني بأن تأتيني بأجمل مما تمنَّيتُها، وأحيانًا بهدية إضافية لم

أتوقعها، أحبَبْتُ هذه اللعبة، اكتشفْتُ أيضًا أني عندما أُحدِّد وقتًا أو سِنًّا مُعَيَّنة للبدء في شيء، أو تحقيقه، فإنَّ هذا الشيء لا يحدث قبل الوقت الذي اخترْتُه، وكان من الممكن أن يحدث قبل ذلك، لو أني فقط اخترْتُ موعدًا قريبًا، أراقب هذه الألعاب طوال الوقت، وكيف تتطوَّر معي، أستمتع بها، وأبادلها اللعب.

مقعد بجوار النافذة.

فضَّلْتُ أن تكون بداية تجوالي من نقطة لا أعرفها، وليس مدينتي الساحلية، حجزْتُ في قطار السادسة صباحًا المُتجه إلى العاصمة، يمكنني هناك أن أبدأ من أيَّة نقطة، أو ربما أكون محظوظًا وتظهر لي مفاجأة ما، أخذْتُ معي حقيبة صغيرة من القماش، أُعَلِّقُها على كتفي، بها أوراق، أقلام، والقليل من الملابس، لا خيمة، خريطة، بوصلة، طعام، أدوية احترازيَّة، لا حتى قِرْبَة ماء، تركْتُ الهاتف والكاميرا حتى لا أشعر أني سائح، وكي أكون حرًّا من كل شيء، مفهوم أنَّ المتشرِّد لا يحمل معه ملابس إضافية، لكنِّي مُتشرِّد مسافر، مُتجوِّل، وفي النهاية لم أستطع منع نفسي عن القلم والورقة.

كان مقعدي بجوار النافذة، أحبَبْتُ هذا، يعجبني أن أصادف علامات صغيرة أتفاءل بها، كنت أعرف أنَّ هذا القطار ليس سريعًا ولا بطيئًا،

اخترتُه كي أشعر أني لستُ مُتعجِّلاً، وترَكْتُ نفسي لإيقاع العالم.

فتحْتُ زجاج النافذة، وضعْتُ ذراعي على حافتها، وأسندْتُ ذقني، أتطلَّعُ إلى العالم، والهواء يلمس وجهي بخِفَّة، بدا لي كل شيء جديدًا، وحيًّا، السماء، الأشجار، الطيور، الحيوانات، والماء، شعرْتُ أيضًا أني جديد، ومُستعد لكل شيء، فَرِحْتُ بروحي، والعالم.

كلما توقَّف القطار في إحدى المحطات، أتطلَّعُ إلى وجوه المسافرين على الرصيف، وأبتسم لهم، رأيت الجميع في حالة خاصة من الجمال، وشعرْتُ أنَّ كل واحدٍ منهم ذاهبٌ إلى موعد مع سعادة ما.

«عباس بن فرناس» يطير.

بدأ القطار يُهدِّئ من سرعته، وهو يدخل إحدى المحطات، كنت قد سافرْتُ على هذا الطريق مرات كثيرة، ويمكنني أن أتعرَّف على أيَّة محطة بمجرد النظر إلى معالمها، أو لو لَمَحْتُ بعض حروف اسمها في لوحة على الرصيف، لكني لم أتعرَّف على هذه المحطة، بدَتْ لي غريبة، قديمة وجديدة معًا.

توقفَ القطار، أخرَجْتُ رأسي من النافذة، لا أحد على الرصيف، ومنعني سور أبيض يمتد بطول المحطة عن رؤية ما هو خارجها، تطلَّعْتُ إلى الأفق القريب، لم أرَ مبانٍ عالية، أو شيئًا مميزًا يمكنني به أن أعرف المكان، بحثْتُ عن لوحة تحمل اسم المحطة،

أقرب واحدة كانت بعيدة، وفي زاوية لا تسمح لي بقراءتها، فكَّرْتُ أن القطار ربما انحرف عن طريقه، أو اتخذ طريقًا جديدة هذه المرة، أو أنَّها محطة لم يكن يتوقف عندها من قبل وحدث تغيير ما، كان أحد الجالسين معي نائمًا، والثاني ينظر عَبْر النافذة ويسأل نفسه «ما هذه المحطة؟!»، ولم يكن الثالث مُهتمًّا بشيء.

نظرْتُ بطول الرصيف، لاحظْتُ أن أحدًا لم يغادر القطار، وأنه توقَّفَ لوقت أطول من المعتاد، كأنما ينتظر أن يغادره شخصٌ ما كي يتحرك.

خطرَتْ لي فكرةَ أن أبدأ تجوالي من هذا المكان الذي لا أعرفه، غادرْتُ القطار، تلفَّتُّ حولي، لا أحد، تحرَّكَ القطار، إذًا كنت أنا الشخص الذي ينتظره أن يغادر، راقبْتُه حتى اختفى.

قدَّرْتُ أن الوقت يقترب من منتصف النهار، السماء صافية، نسمة هواء خفيفة، المحطة ساكنة، تُعطي انطباعًا بأن قطارًا لم يمرّ بها قبل الذي جئتُ به، ولن يمرّ بها واحدٌ بعده، مشيْتُ إلى اللوحة المعدنية المُثبَّتَة بالرصيف، كانت زرقاء، وبدلًا من اسم المحطة وجدْتُ رسمًا بالأبيض لرجل يطير بجناحَيْن من ريش، مُثبَّتَيْن في ذراعيه المفرودَتَيْن.

بحثْتُ عن مَخرَج في سور المحطة، وجدْتُ بابًا خشبيًّا مفتوحًا، ورأيت جملة مكتوبة بجواره في السور بطباشير أحمر، ابتسمْتُ

وقرأتُها بصوت مسموع:

«سعد يُحِب سلمى».

خرَجْتُ.

رأيت رجالاً ونساء وصِبيَة يهرولون في اتجاه واحد، وهم يقولون:

«عباس بن فرناس سيطير».

يرتدون ملابس عربية من زمن قديم، الرجال في عباءات من كِتَّان، أو قطن، وأحذية خفيفة، والقليل منهم يضع عِمامة فوق رأسه، النساء في ملابس فضفاضة، ملوَّنة، مع غطاء للرأس يسحَبْن طرفه ليُغطِّين جانبًا من الوجه، وبعضهُنَّ يُغَطِّين وجوههِنَّ بوشاح خفيف، الأولاد والبنات في ملابس زاهية، والجميع مُبتهجِين.

تطلَّعْتُ إلى البيوت، لها شرفات، نوافذ وأفاريز خشبية بتصميمات دقيقة، الأرض مرصوفة بقطع من حجارة نظيفة، وشَمَمْتُ في الهواء رائحة كأنها لزمنٍ غير الذي أعرفه، «زمن ماذا؟!»، سألْتُ نفسي أخيرًا، «أين أنا؟»، طَرَقْتُ جبهتي، وضغَطْتُ على إحدى يديَّ بالأخرى كي أتأكَّد.

كنت مستعدًا أن أتقبَّل إمكانية انتقالي إلى زمن آخر، وحتى ما هو أكثر من ذلك، أُصدِّقُ جدًّا أن هذا يحدث، استوعبْتُ الأمر

خلال لحظات، وطرقتُ رأسي بأصابعي فقط؛ لأتأكَّد أنه قد حدث، وأني انتقلتُ.

نظرتُ خلفي، بدا لي أنَّ سور المحطة ازداد ارتفاعًا، كان بابه الخشبي مُغلقًا، انتبهتُ على أصابع تجذب يدي، التفتُّ، رأيت صبيًّا بعينين واسعتَين يقول لي:

«ابن فرناس سيطير، هيا».

جرى الصبيُّ عِدَّة خطوات، وأشار لي:

«ماذا تنتظر؟».

جريتُ معه، سألتُه:

«ما اسمك؟».

«اسمي جَوَاد».

حاولتُ ألا أبدو غريب الأطوار وأنا أسأله:

«أين أنا؟ أقصد ما اسم هذه المدينة؟».

«قرطبة»، قالها الصبيُّ وهو يتطلَّع إلى الأفق، ثم مرَّرَ عينيه على ملابسي القادمة من زمن آخر ولم يستغرِبها.

خرجنا إلى ضاحية بالمدينة.

أشار «جواد» إلى نقطة في الأفق:

«هناك».

رأيت رجلاً بجناحَيْن، يقف فوق جبلٍ ليس عاليًا، كان الكثيرون قد سبقونا إلى هناك.

قال الصبيّ: «ابن فرناس ينتظر وصول الجميع».

صعدنا الجبل، توقفتُ على بُعْد خطوات من الرجل ذي الجناحَين، بدا في الستين من عمره، ممشوق القوام، عيناه مرسومَتَان كعيني طائر، شعره رمادي متموِّج، مع شارب ولحية مُشَذَّبَيْن، نصف جسده العلوي مُغَطًّى بريش وشرائط قصيرة من الحرير، يرتدي بنطلونًا خفيفًا من قماش برتقالي، وفي ذراعيه جناحَان من الريش، قلتُ لنفسي «عباس بن فرناس»، سمِعَني، وابتسمَ لي.

شرَحَ «بن فرناس» لنا في جُملٍ قصيرة كيف صنع جناحَيْه من ريش النسور وشرائط الحرير، وأنه قام بحسابات كثيرة، قبل أن يقوم بمحاولة الطيران.

كنت قد رأيت رسومات له في الكتب أثناء محاولته الطيران، ظهَرَ في بعضها بعمامة فوق رأسه، وجناحَين، دون ريش يغطي جسده. مَرَّرَ الرجل عينيه علينا، و قال:

«الآن، أستأذنكم لأطير».

أعرف مثلما قرأتُ في الكتب أنه قام بأكثر من محاولة للطيران، ولم تنجح أيّ منها بشكل كامل، والسبب الرئيسي أنه لم يصنع

لنفسه ذيلاً، فكَّرْتُ أن أُخبره بأنه في حاجة إلى ذيل، لكني وجدْتُ نفسي أقول له:

«طِرْ جيدًا يا بن فرناس».

نظر إليَّ نظرةَ الطائر:

«سأفعل كل ما بوسعي».

فتَحَ ذراعيه جانبًا، حرَّكهما مرتين مثل طائر، ودفَعَ بنفسه إلى الفراغ، هبط ما يقارب مترين، ضرب بجناحيه فارتفع، هلَّلَ الناس، وبدأوا ينزلون الجبل، وهم يراقبونه ويهتفون:

«طِرْ يا بن فرناس».

راقبْتُه وأنا أتوقَّعُ سقوطه، وأتمنَّى طيرانه، سمِعْتُ صوت الصبيِّ «جَوَاد» يهتف:

«ماذا تنتظر؟».

لمحْتُه وهو يشير إليَّ من مُنحدَر الجبل، ويجري، جريْتُ معهم، يتطلَّعون إلى «بن فرناس»، ويُحرِّكون أذرعهم كأجنحة، كأنهم سيطيرون معه في لحظة ما، بدا لي أنه بخير ولن يسقط، لكنه بدأ يهبط بشيء من الاندفاع، كأنما فَقَدَ السيطرة، بدأ الناس يتوقفون، خفَتَتْ أصواتُهم، وهم يرقبون هبوطه السريع، ندمْتُ أني لم أُخبره عن الذيل الذي ينقصه.

صار فوق رؤوسنا، انحنى البعض مِنّا، سمِعْتُ الهواء يندفع بين جناحيه، توقَّفتُ أن يرتطم بالأرض بعد لحظة، لكنَّ «بن فرناس» ارتفعَ، وسمِعْتُ منه صيحةَ طائر مُحَلِّق، هلَّلَ الجميع، ابتسمَ لنا، ابتسمْتُ وأنا أتطلَّع إليه، بدا مُتحكِّمًا في جناحَيه، دار حول نفسه، وهو يؤدي حركات بهلوانيَّة، تأكَّدْتُ أنه لن يسقط.

اقتربَ مِنّا بهدوء، كان واثقًا، وكنا واثقين به، جناحاه مفرودان على امتدادهما، يلمعان بريش النسور وشرائط الحرير، رفعنا أذرعنا كي نلمسه، تباطأ كي يمنحنا الفرصة، ويمنحها لنفسه، سمِعْتُ الهواء يُغنِّي في جناحيه، كان يبتسم لنا، تقابلَتْ عيناي بعينيه للحظة، ولمَسْتُ جناحه.

ارتفَعَ «بن فرناس» وهو يُحرِّك جناحيه بإيقاع منتظم، جرينا معه، وكان الجميع يهتفون:

«طِرْ يا بن فرناس».

اختفى بين السحاب، توقفوا وهم يُفتشون بأعينهم عنه:

«أين هو؟ فَعَلَها عباس بن فرناس، طار الرجل، طار الرجل».

حضنوا بعضهم بعضًا، يتبادلون التَّهاني، ويضحكون، لمَحْتُ الصبيَّ «جَوَاد»، وهو يُحرِّك ذراعيه مثل طائر وينظر إلى السماء.

قال أحدهم: «ربما عاد إلى المدينة».

جروا باتجاه المدينة، مرَّرْتُ عينيَّ على السماء كي أتأكَّدَ أنه ما زال يطير، لم أرَه، مرَّرْتُهما على الأرض كي أتأكَّدَ أنه لم يسقط، لم أرَه، جَريتُ معهم، تفرَّقْنا في شوارع المدينة، كنت أسمع بين لحظة وأخرى صيحة لأحدهم، وهو يهتف «ها هو، أراه»، تمنَّيتُ أن أراه مرة أخيرة، تنقَّلْتُ بين الشوارع، دون أن أُبْعِدَ عينيَّ عن السماء، لا أعرف كيف لم أصطدم بشيء، رأيته يخرج من سحابة زرقاء، وهو يضرب بجناحيه، ابتسَمْتُ، وجريْتُ معه حتى اختفى داخل سحابة أخرى، توقفتُ وقلت:

«طِرْ يا بن فرناس».

عندما نظرْتُ أمامي، وجدْتُ نفسي على بُعْد أمتار من جسر يمتد فوق نهر، كان مُشَيَّدًا بطريقة حديثة، تدلُّ على زمن أَحدَث من الذي رأيت فيه «عباس بن فرناس»، نظرْتُ خلفي، لم أرَ «قرطبة» التي كنت فيها منذ لحظات، إنما مبانٍ بعيدة لها أشكال أخرى، بدَتْ كأنها لوحة طافية، أدركْتُ أني انتقلْتُ إلى زمن آخر مُتقدِّم.

الفتاة الكمان.

مشيتُ إلى الجسر، رأيت في بدايته لوحة معدنية بها كتابة باللغة الإسبانية، لم أكن أعرفها من قبل، لكني استطعْتُ قراءتها:

«Puente Ibn Firnas»، «جسر بن فرناس».

توقَّعتُ أني سأعرف لُغةَ كل زمن أنتقل إليه.

عبَرْتُ الجسر، مشيتُ حتى رأيت مدينة على مسافة ليست بعيدة، ربما هي «قرطبة»، لكن في الزمن الذي انتقلْتُ إليه، مبانيها مثل مُرَبَّعات بيضاء مع رتوش من البرتقالي، اتجهتُ إليها، دخلْتُها، شوارعها مرصوفة بقِطَع من حجارة حمراء داكنة، تؤدي إلى بعضها بعضًا، كأنها شارع واحد يتجوَّل في المدينة، البيوت مُلوَّنة بالأبيض مع مساحات بسيطة من البرتقالي والأحمر الفاتح، لها شرفات قريبة تتدلَّى منها ورود ونباتات، ستائر بيضاء خلف زجاج النوافذ، وبين لحظة وأخرى تقفز موسيقا من شرفة، نافذة، أو زاوية، وأغلبها للجيتار، محلات للملابس، الطعام، الهدايا، والأعمال الفنية، كلها تتسرَّب منها ألوان هادئة، وروائح جميلة، لأهل المدينة وجوه مُريحة، عيون ملوَّنة، شَعْر متموِّج غالبًا، شابات في ملابس بسيطة: تي شيرت، شورت، قميص، بنطلون خفيف، والجميع يبتسمون بسهولة.

للمدينة ضوْؤُها الخاص، درجة حرارتها الخاصة، وموسيقاها الداخليَّة، توقفْتُ عند نموذج خشبي لجيتار مُثبَّتْ بالرصيف، رأيت فيه جملة مكتوبة بلون أخضر، كانت باللغة الإسبانية، ابتسمْتُ وقرأتُها بصوت مسموع:

«Alejandro ama Lucia»، «أليخاندرو يُحب لوسيا».

دخلْتُ ممَرًّا عرْضُه لا يتجاوز مترًا واحدًا، بدا طويلاً، أرضه مُبَلَّطَة بقِطَعٍ مستطيلة من حجارة ورديَّة، قابلني تيار هواء بارد،

أبواب البيوت على الجانبَين مفتوحة، ستائر ناعمة تُغطي النوافذ القريبة، وروائح خفيفة لطعام يتم طهيه تتسلَّلُ إليَّ من كل باب، لم أتعرَّف إلى بعضها بسبب خِفَّتِها، أحبَبْتُ هذا: روائح جميلة، مُهذَّبة، تستأذنك قبل أن تلمس حواسَّك.

أَنْظُر بطرف عينيَّ عَبْر الأبواب، ألمح ممرَّات مستطيلة أو مُرَبَّعة، مُبَلَّطَة برخام به رسومات ملوَّنة، ينتهي المَمَرّ عند باب خشبي مُزخرَف برسومات هندسية، أسمع ضحكة أنثوية خفيفة، أرى طفلاً يجري، أو حزمة ورد تَغْبُر بمفردها.

خرجْتُ من الشارع، تلاشَتْ رائحة الطعام، انقطعَ تيار الهواء، وجدْتُ نفسي في ميدان صغير، تقف بمنتصفه شابة في العشرين، بطنها عبارة عن آلة الكمان الموسيقية، لونها قرمزي، تعزف عليها الفتاة بقوس فضي، وحولها جمهور، توقفْتُ أتأمَّلُها لحظات، مشيتُ إليها وانضمَمْتُ إلى جمهورها، شعرها بلون الشَّفَق، طويل، ومتموِّج، ترتدي صديريَّة قرمزيَّة بتطريزات ذهبية، وبنطلون بلون الصديريَّة وتطريزها، وحذاء من قماش أحمر به نجمة فضيَّة.

تَنقلُ الفتاةُ عينيها بين بطنها «الكمان» والجمهور، وتهتف بين لحظة وأخرى بشيء عن الموسيقا، تُغيِّرُ بعده إيقاع العزف، ويتفاعل جمهورها معها في كل نغمة أو حركة تؤديها.

هتفَت الفتاة: «الموسيقا للحب».

هتفَ الجمهور: «نعم»، وتناغموا مع إيقاع العزف الجديد، يرقصون، بعضهم مع شريك، البعض الآخر مع نفسه، أو ربما شريك في خياله.

هتفَت الفتاة: «الموسيقا للسعادة».

ردُّوا عليها: «نعم».

نظرَتْ إليَّ كأنما عرفَتْ أني لم أردُّ، هزَزْتُ رأسي بأني أوافقها، ابتسمَتْ، عزفَتْ قطعة صغيرة وهتفَتْ:

«الموسيقا للصداقة».

ردَدْتُ مع الجميع: «نعم».

اقتربَ منها شاب، وحَرَّكَ يده في الهواء كمن يعزف على كمان، أعطته القوس، جلسَ على ساقيه أمام كمانها، عزفَ عليه مقطوعة قصيرة، ثم هتفَ:

«الموسيقا للطيران».

ردَدْنا وهي معنا: «نعم».

أشارت إليَّ «الفتاة الكمان»، دخلْتُ وأخذْتُ القوس، جلسْتُ أمام الكمان غير متأكدٍ مما سأفعل، أمسكَتْ بيدي، حرَّكَتْها على أوتار الكمان للحظات وتركَتْها، أكملْتُ العزف بمفردي، وفي نهاية المقطوعة هتَفْتُ:

«الموسيقا للجمال».

رَدُّوا عليّ: «نعم».

تركْتُ مكاني لطفل في العاشرة من عمره.

لاحظْتُ أن «الفتاة الكمان» لا تضع أمامها شيئًا يتركُ فيه الجمهور نقودهم، ربما هي لا تأكل ولا تشرب بالأساس، واصَلَت عزفَها، تصاعَدَ اللحن، حتى أنهَتْه وهي تهتف:

«الموسيقا للحريَّة».

ردَدْنا: «نعم».

الموناليزا.

عبَرْتُ الميدان، مالت الشمس إلى الغروب، دخلْتُ شارعًا جانبيًا، لاحظْتُ أنَّ طراز البيوت قد تغيَّر، تميل إلى أن تكون مستطيلة، ألوانها بيضاء، بُنِّي فاتح، مع مساحات من الأصفر، نوافذها كبيرة، الأرض مرصوفة بقطع من حجارة داكنة، أدركْتُ أني انتقلْتُ إلى زمنٍ غير الذي رأيت فيه «الفتاة الكمان».

مَرَّ بي صبيٌّ يعزف الهارمونيكا، وبجواره فتاة في مثل عمره تُغنِّي باللغة الإيطالية، التي لم أكن أعرفها من قبل، اندفعَتْ من إحدى النوافذ رائحة طعام بها شيء حِسِّي، وسمِعْتُ ضحكة امرأة، كان الشارع صاعدًا بدرجة ميل بسيطة، رأيت قمَّته تلمع في ضوء

الشمس البرتقالي، عندما وصلْتُ إليها وجدْتُ نفسي في ساحة كبيرة إلى حدٍّ ما، تتفرَّع منها عِدَّة شوارع، وتحيط بها مبان ومحلات صغيرة، كان هناك رسَّامون يعملون على لوحاتهم، وأشخاص يتجوَّلون، وفي الوقت نفسه يحافظون على المساحة الخاصة لكل فنان، لا أحد يُطيلُ الوقوف أمام لوحة، أو يسأل الرسَّام عن شيء. ثم أنصَتُّ إلى ذلك الصوت الخفيّ، الذي كنت أسمعه منذ دخولي الساحة، كان نهرًا يجري تحت الأرض.

تنقَّلْتُ بين عِدَّة رسَّامين، وصلْتُ إلى رسَّام، بدا في الخمسين من عمره، شعره رمادي طويل يغطي الأذنين ويمتزج مع شارب ولحية طويلة، يقف عند ناصية شارع يتفرَّع من الساحة، مستديرًا بظهره إليها، لوحته بيضاء، فرشاته في يده اليسرى، وفي عينيه نظرة فنان مفتون.

رأيت جملة مكتوبة بلون أزرق، باللغة الإيطالية، في جدار بيت بناصية الشارع، ابتسمْتُ وقرأتُها بصوت مسموع:

«Marco ama Leonora»، «ماركو يُحب ليونورا».

استندْتُ بظهري إلى الجدار، أنقل عينيَّ بين المارَّة، لكني في الحقيقة أراقب الرسَّام، عيناه مُعَلَّقتان بنقطة وهميَّة في عمق الشارع، كأنه ينتظر أو يتمنَّى ظهور شخص ما، حتى لمعَتْ عيناه وتحرَّكَتْ يده بالفراشة بحركة لا إراديَّة، كان ينظر إلى امرأة تبدو في

بداية الثلاثينات، ترتدي ملابس بسيطة، وتحمل طفلة ربما عمرها ثلاث سنوات، تعلَّقَتْ عينا الرسَّام بالمرأة، وقبل أن تَمُرّ بجواره، قال لها:

«من فضلِك».

تباطأتْ المرأة ونظرَتْ إليه.

قال: «أتسمحين أن أرسمك؟».

ابتسمَتْ، وتردَّدَتْ كأنما تذكَّرَتْ شيئًا ما.

«لكني مُتَعجِّلة، لديّ أعمال منزليَّة».

«فقط دقائق قليلة».

توقفَتْ المرأة.

قالت: «حسنًا، لتنتظر أعمال المنزل دقائق أخرى»، نظرَتْ إلى طفلتها، وقالت: «هل تريد أن ترسم طفلتي أيضًا؟».

اقترَبَ الرسَّام منها، نظر في وجه الطفلة.

قال: «أُحب ذلك، لكن ليس هذه المرة».

تلفَّتَت المرأة حولها، اقترَبْتُ منها، وقلت:

«يمكنني أن أحمل طفلتك حتى يرسمك».

تفحَّصَتْني بعينَين هادئتَين، فيهما جحوظ خفيف زادهما جمالاً، كانت تفاصيل وجهها ناعمة، قالت لطفلتها:

«لا تخافي صغيرتي، أنا هنا»، ونَقَلَتْها إلى صدري قائلة: «ابقَ قريبًا، أرجوك»، أومأتُ بابتسامة وعُدْتُ بالطفلة إلى مكاني.

نظر الرسَّام حوله إلى انعكاسات نور الشمس، أَوقَفَ الأم الشابة في زاوية بفتحة الشارع، ما زالت فرشاته بين أصابعه، جلَبَ مقعدًا من مطعم قريب، وضَعَه في نقطة ملاصقة للمرأة، حرَّكَه بزوايا صغيرة، مرَّرَ عينيه على النور والظلال، أجلَسَ المرأة بزاوية على المقعد، طلبَ منها أن تسترخي، أسندَتْ ظهرها إلى المسند، تراجعَ الرسَّام خطوة، تأمَّلَها، هزَّ رأسه، أمسكَ بيدها وأنهضها عن المقعد، كَسَرَ مسنده الخلفي بضربة واحدة فنيَّة، نظَّفه بكُمِّه، أمسَكَ بيد المرأة وأجلسَها، رتَّبَ ملابسها، كشفَ مساحة من صدرها سمحَتْ بها، مَسَّدَ أطراف شعرها، بُنِّي فاتح، متوسط الطول، ومفروق من المنتصف، ضبَطَ وضعيَّة رأسها، كتفيها، ظهرها، صدرها، ساقيها، وقدميها، فَعَلَ هذا بلمسات خفيفة، وضَعَ مرفقها الأيسر على المسند الجانبي للمقعد، أراح يدها اليمني فوق ظهر اليد اليسرى، أزاح الكُمَّيْن عنهما قليلاً، فرَدَ أصابع اليد اليمنى واحدًا بعد الآخر، أصابع بيضاء، مسحوبة بخِفَّة، وبها شيء ناعس، كانت أصابع يدها اليسرى مُنسابة للأسفل مع حافة المسند، مرَّرَ الرسَّام عينيه على تفاصيل المرأة، تراجعَ خطوتين، تأمَّلَها.

«الوشاح»، هتفَت الطفلة، وسحبَتْ من جيبها وشاحًا شفافًا طيّرتْه باتجاه أمها، التقطه الرسَّام بطرف إصبعيه، وضَعَه على رأس الأم، وضَبَطَ حوافه، تأمَّلها لحظة، ابتسمَ للطفلة، وعاد إلى مكانه أمام لوحته، سألَ الأم الشابة:

«هل أنتِ مرتاحة؟».

أومأتْ وقالت: «هل تريدني أن أنظر إلى نقطة معينة؟».

«اُنظري إليَّ لو كان المنظر يروقك».

نظرَتْ إليه.

قال: «يهمّني الآن أن تُنصتي إلى صوت النهر تحت قدميك»، اِنتظرَ لحظات وسألَها «هل تسمعينه الآن؟».

أومأتْ، وابتسمَ بداخلها شيء ما.

أمسك الرسَّام «لوح الألوان- الباليت» في يده اليمني، وبدأ يرسم لوحته.

كانت الزاوية التي وضَعَ فيها المرأة عجيبة، فالنور الذي ينعكس على وجهها يختلف عمَّا حولها، ليس هو نفسه نور الشمس التي تميل الآن إلى الغروب، إنما مزيج من شموس عديدة في أوقات مختلفة، بدَت المرأة متوَحِّدة داخل نورها الخاص، ومتماهية في الوقت نفسه مع أنوار العالم، هل استعدَّتْ، بقصد أو دون قصد،

خلال حياتها الماضية كلها؛ لأجل أن تُظهِرَ هذه اللحظة العميقة بداخلها في وقت ما، وكان وقتها الآن، أم أنَّ الرسَّام ساعدها، أو حتى كشَفَ بنفسه عن لحظتها العميقة تلك؟

توقَّف الرسَّام عن العمل بعد خمس دقائق، ظَلَّ يتأمَّل اللوحة، سألَتْه المرأة:

«هل انتهيت؟».

كرَّرَتْ سؤالها مرتين، نظرَ إليها من حُلمه.

«نعم، سيدتي، كانت دقائق قليلة مثلما وعدْتُك»، مشى إليها، قبَّلَ يدها: «شكرًا لكِ»، ظَلَّ مُمْسِكًا بأطراف أصابعها، ومشى بها إلى اللوحة، تطلَّعَتْ المرأة إليها.

قالت: «أحبَبْتُها، هل تتوقَّع أن تبيعها بسعر جيِّد؟».

قال الرسَّام وهو يتأمَّل لوحته: «لا أعتقد أني سأبيعها».

«أليست جميلة بدرجة كافية؟».

نظرَ إليها.

«لا سيدتي، إنها جميلة، لكن..»، نظر إلى اللوحة، وأكمل: «لا أعرف، بها شيء يمنعني أن أبيعها».

تأمَّلَته المرأة قليلاً.

قالت: «أنتم الفنانون! على أيَّة حال، هل يمكنني الآن العودة إلى بيتي؟»، نظرَتْ إليّ، تقدَّمْتُ إليها، قبَّلْتُ طفلتها ونقلْتُها إلى صدرها، سحبَت الطفلة الوشاح عن رأس أمها، ومسَّدَتْ لها شعرها، ضحكَت الأم ومشَتْ بابنتها خطوتين، توقفَتْ، تأمَّلَتْ اللوحة، ثم نظرَتْ إلى الرسَّام، وقالت:

«أرجو أن أكون قد ألهمتك، ولو قليلاً».

«أنتِ أسعدْتِني»، قال الرسَّام.

مشتْ المرأة إلى منتصف الساحة، ناداها.

«سيدتي، ما اسمك؟».

التفتَتْ إليه، ابتسمَتْ ولم تردّ، هتفَتْ له الطفلة:

«Il mio nome e` Lisa»، «أنا اسمي ليزا»، وضحِكَتْ.

«Lisa»، قال الرسَّام لنفسه وهو يتأمَّل الطفلة، نظرْتُ إلى اللوحة، وجدْتُ أنها لوحة «الموناليزا» الشهيرة، إذًا الرسَّام هو «ليوناردو دافنشي»، نظرْتُ إليه من جديد عن قُرْب، رأيت بشكل مُفَصَّل نظرة الفنان المفتون، تأمَّلَ «دافنشي» لوحته.

قال: «أشعر أني رسمْتُها من مكان في روحي، أكتشفه للمرة الأولى».

كانت المرأة في اللوحة تبتسم دون أن تبتسم بالفعل، كأن شيئًا حزينًا بداخلها هو مَنْ يبتسم، أو أنه شيء سعيد شَعرَ فجأة بحزن غامض، ربما روحها، سألْتُ «داڤنشي»:

«من أين جِئتَ بالخلفيَّة، الجسر، البحيرة، والطريق الملتوي؟».

«لا أعرف، من خيالي، ربما رأيتها في مكان، أو عدَّة أماكن متفرقة، ربما أُعَبِّر بها عن روح المرأة، أو روحي».

كان في اللوحة شيء حَي، كأن «داڤنشي» استخلصَ روح المرأة وبثَّها في لوحته.

رسَمَ خلف المرأة حافة لجدار شُرْفَة أو تراسّ، وحولها كان عمودان، أحدهما عن يمينها والآخر عن يسارها، ربما فعل ذلك ليُمَوِّه المكان الذي رسم فيه لوحته، أو ربما تخيَّلَ المرأة جالسة في شُرْفَة- تراسّ بيتها، الذي أَجَّلَتْ أعماله لأجل أن يرسمها، ثم نقلها بشُرْفَتها داخل طبيعة من خياله.

سألْتُ داڤنشي: «بِمَ تُسَمِّي لوحتك؟».

تأمَّلَها لحظات:

«أسمّيها Mona Lisa»[*].

«ولن تبيعها، صحيح؟».

كنت أعرف مثلما قرأتُ عن اللوحة أنه لن يبيعها.

«لن أبيعها».

تأمّلْتُ «الموناليزا»، كنت أعرف أن «دافنشي» حسْبَ ما قرأت قد استغرق عِدَّة سنوات في رسمها، لكنها بدَتْ لي مكتملة، ربما أضاف إليها رتوشًا فيما بعد.

نظرْتُ إليه، رأيت في عينيه نظرة الشجن، التي ينظر بها المبدع إلى عمله الذي أَنجزَه للتوّ.

ربَّتُ يدَه المُمْسِكَة بالفرشاة، ومشيت.

فكَّرْتُ أنَّ سِرّ ابتسامة «الموناليزا» ربما يكْمُنُ في أنَّ الشخصية المرسومة ليست هي صاحبة الاسم، الأمر بهذه البساطة: سِرّ الابتسامة هو أنَّ اللوحة تحمل وجه أُمٍّ واسم طفلتها.

(*) كلمة «Mona»، تعني «السيدة»، بالإيطالية الدارجة، كأسلوب مُهذَّب في الحديث، وهي مأخوذة من كلمة: «Ma donna»، التي تعني «سيدتي» بالإيطالية، وهنا قام «دافنشي» باستخدام اللقب «Mona»، الذي يخصّ المرأة التي رسمها، وأضاف إليه اسم طفلتها.

المُهَرِّج.

توقفتُ عند بداية شارع ينحدر بزاوية لطيفة، نظرْتُ إلى «دافنشي»، رأيته يتأمّلُ موناليزَتَه في بقايا نور الشمس البرتقالي، ابتسمْتُ ودخلْتُ الشارع، كان خاليًا، سمِعْتُ خَفْقَ أجنحة في الهواء، نظرْتُ إلى أعلي، رأيت «عباس بن فرناس» قادمًا باتجاهي، وهو يطير على مسافة قريبة، ابتسمْتُ وتوقفت، قَلَّلَ من سُرْعته، رفعْتُ ذراعي لأعلى، اقترَبَ مِنّي، التقَتْ عيناي بعينيه، كان يبتسم، مرَّرْتُ أصابعي بين ريش جناحه، ارتفعَ من جديد، راقبته حتى اختفى في السماء.

«طِرْ يا بن فرناس».

مشيتُ، ووصَلْتُ إلى درجات حجريَّة هابطة، عددها لا يتجاوز العشر، نزَلْتُها، غابت الشمس، وجدْتُ نفسي في تلك الدقائق الوهميَّة بين النهار والليل، نظرْتُ خلفي، رأيت الدرجات الحجريَّة قد ازداد عددها جدًّا، بدَت المدينة التي جئتُ منها بعيدة، أدركْتُ أني في زمن ومكان غير الذي رأيت فيهما «الموناليزا».

سمعْتُ موسيقا صاخبة، وظهَرَ من أحد الشوارع سيرك متجوِّل، فيه لاعبو أكروبات يؤدون حركات بهلوانيَّة، فرقة موسيقيَّة، أربعة أُسُود يمشون وسط الفرقة، وطفلة تركب ظهر واحد منهم، ثلاثة

أفيال، خمسة من كلاب البحر، دُبّ، نمر، ومُهَرِّج بقناع حزين، يؤدي حركات للضحك، وهو ينظر إلى المارَّة ويقول:

«تعالوا، شاهدوا السيرك العجيب».

كان يتكلم باللغة الهنديَّة، التي لم أعرفها من قبل، مَرَّ بالقرب مني والتقَتْ عيناي بعينيه للحظة، وفي نهاية السيرك قطار قصير يمشي على إطارات من المطاط، يخرج من قِمَّته دخان يَتغيَّر لونه بين لحظة وأخرى، وله رائحة عطريَّة، كانت هناك زرافة تُخرِجُ رقبتها من إحدى النوافذ وتتفرَّج على الجميع، رأيت في جسم العربة الأولى جملة مكتوبة بلون أصفر فوسفوري، باللغة الهنديَّة، ابتسمْتُ وقرأْتُها بصوت مسموع:

"यश प्यार करता है प्रियंका"«ياش يُحب بريانكا».

الكثير من أهل المدينة يمشون مع السيرك، أو يخرجون من الشوارع، وينضمُّون إليه، مشيْتُ معهم قريبًا من المُهَرِّج.

وصل السيرك إلى ساحة خالية، رسمَ لاعبو الأكروبات على الأرض دائرة كبيرة بلون ذهبي فوسفوري، وأقاموا السيرك بداخلها خلال خمس دقائق: خيمة كبيرة لها مدخل بحجم باب صغير، يقف عنده رجل في ملابس ملوَّنة، يضع على رأسه قبعة طويلة، ويجمع النقود من الجمهور قبل دخولهم.

كان المُهرِّج يتحرك أمام الباب، ويقول:

«هيا، تعالوا، السيرك العجيب، لا تفوِّتوه».

فَتَّشْتُ جيوبي، وجدْتُ بعض نقود ربما لا تناسب الزمن الذي أنا فيه، مدَدْتُ يدي ببعضها إلى الرجل ذي القبعة الطويلة، أخذها مني، نظر فيها.

قال: «كنا هناك بالأمس، أُدخل».

التقَتْ عيناي بعيني المُهرِّج.

قال: «لا تُفَوِّت فقرتي»، وابتعَدْ، راقبْتُه قليلاً ودخلْتُ السيرك.

جلسْتُ بين الجمهور على مقاعد خشبية مُتراصَّة بشكل مُدَرَّج، لا أعرف من أين جاءت، ربما يحملونها معهم في القطار، رغم أني لا أتوقَّعُ أن يتَّسِع لكل هذه المقاعد، هناك حيلة ما.

بدأتْ فقرة الساحر، شاب في بدلة سوداء أنيقة بذيل طويل، يضع ببيون، وقبعة سوداء طويلة، ويُمسك بين أصابعه عصا سوداء قصيرة.. الشكل الكلاسيكي للساحر، سحَبَ من الهواء منديلاً ملوَّنًا، حوَّله إلى حمامة، طيرَّها، خَلَع قُبَّعته، عرضها فارغة للجمهور، طرَقَ على حافتها بطرف عصاه، قفز منها أرنب أبيض وجرى إلى الكواليس، سكَبَ الساحر من القبعة خيط ماء لم يصل إلى الأرض، انقطع الماء وقفزَتْ بدلاً منه ثلاث تفاحات، ذهبَتْ حيث ذهب الأرنب، دفعَ الساحر قُبَّعَتَه إلى أعلى وهو يمسك بطرفها، تبعثرَتْ منها عملات نقديَّة ذهبية، حَيَّا الجمهور، وضعَ القبعة على رأسه، ومشى إلى الكواليس، تَبِعَتْه عملاته النقدية وهي تدور على حوافها.

كان عرضًا بسيطًا، النوع المُفَضَّل لي، لا يستهويني ما يُسمَّى «عروض سحريَّة كبيرة»، تبدو لي مجرد «عرض»، أو عندما يقوم الساحر بتقطيع شخص ما، وإعادته ثانية قطعة واحدة، كلنا يعرف أنها خدعة، الأهم من ذلك: ما الجميل والسحري في تقطيع شخص ما؟ العروض البسيطة بها شيء حقيقي، حي، منسجمة مع العالم، وأحد أسرار جمالها أنك تقول لنفسك عندما تشاهدها «يمكنني أن أفعل هذا، يمكنني أن أكون ساحرًا».

فقرة الحيوانات: الأُسود، الأفيال، النمر، كلاب البحر، الدُّبّ، هؤلاء المساكين، يؤدون المطلوب منهم بخضوع مُذِلّ، أفكر أنهم في المكان الخطأ، ويفعلون أشياءً خاطئة، لم تظهر الزرافة، ربما مريضة، أو أنَّ وظيفتها في السيرك أنْ تَمُدَّ رقبتها خارج نافذة القطار، وتتفرَّج على الجميع.

الذئب حيواني المُفَضَّل، حالة خاصة ومزاج مُتفرِّد، غير قابل للترويض أو الإذلال، يمكنه أن يكون صديقًا، لكن ليس تابعًا، هو أحد العُشَّاق القدامي في العالم، تناسبه هذه الصورة، عواؤه أحد أفضل الحالات التي تُعبِّر عن الليل، يُجَسِّده، ويضيف إليه من شخصيته، عواء الذئب طقس فنِّي، يأتي من مكان عميق وأرض غامضة، تشعر أنه قَطَعَ تلك المسافة الطويلة لأجلك، صوتٌ تسمعه بداخلك، ويُحرِّك فيك مساحة بنفسجيَّة عميقة، ربما تحبه،

أو يُحيِّرك، فتحتار لماذا أحببته، أو تحبه لأنه حرَّك فيك تلك الحيرة، عواء ليس للتهديد أو التخويف، إنما للحب، والألم، والتعبير عن حالة شعوريَّة خاصة.

لن ترى الذئب أبدًا في سيرك، يمكنك أن ترى كل وحوش الغابة تتوسَّل، تجثو على بطنها لأجل طعامها، الذئب وحده لن يفعل، وهو مَنْ يحفظ للغابة كرامتها.

ظَهَرَ المُهرِّج، وحده داخل دائرة من الضوء، العالم مُظلم حوله، أُحب الفقرات التي يؤديها شخص واحد داخل دائرة من الضوء، يكون الأمر مرهونًا بموهبته، وعليه أن يراهن عليها، ويُثبِتُها، أشعر وقتها أن الكرة الأرضية قد أظلمَتْ عدا الدائرة التي هو فيها، لا أحد في العالم غيرنا، أنا وهو، بيني وبينه مسافة طويلة، وفي الوقت نفسه يجمعنا خيط خَفي، أتوحَّدُ معه، وأتمنى أن ينجح فيما يفعله.

لكني لا أضحك مع المُهَرِّجين، أعتبرهم أكثر فقرة جديَّة في السيرك، أشعر معهم بحزن غريب، يصل أحيانًا إلى الألم، سواء كان القناع ضاحكًا أم باكيًا، ورغم ألوانه الواضحة، وضحكته الكبيرة، أو دمعته الكبيرة، أراه غامضًا، أفكر دومًا فيما خلف ذلك القناع، وتلك الحركات المُهرِّجة.

كان المُهرِّج يؤدي حركاته بوجهه الحزين، أنفه البُنيَّة الكبيرة، وجهه الملوَّن بالأبيض والأحمر مع رتوش صفراء وزرقاء، شعرْتُ

أنَّ عينيه في عينيَّ طوال الوقت، أسمع ضحكات الجمهور فتبدو لي بعيدة كأنها من زمن ومكان آخرين، لا أربط أبدًا بين ضحكات أيّ جمهور وأداء مُهرِّج، لا أُصدِّق أنه من الممكن أن يكون سببًا للضحك، وكثيرًا ما كِدْتُ أبكي وأنا أشاهد أحدهم.

أنهى المُهرِّج فقْرَتَه، أُضيئتْ القاعة، حَيّا جمهوره بتهريج وانسحَبَ إلى الكواليس، شعرْتُ بحزن غامض، غادَرْتُ الخيمة، وقفْتُ قريبًا من الباب، لمسني هواء بارد، أغمضْتُ عينيَّ وتنفَّسْتُ بعمق، تطلَّعتُ إلى البيوت، هادئة، لا أحد في الشوارع، سمعْتُ خلفي صوتًا يقول:

«هل تحب أن تتمشّى قليلاً؟»، عرفْتُه، التفَتُّ إلى المُهرِّج الحزين.

قلت: «أنا هنا لأتَمَشّى».

مشينا في الشارع، القمر مكتمل تقريبًا.

قال المُهرِّج: «رأيتُ نقودك، كيف جئتَ إلى هنا؟»، قال قبل أن أُجيبه: «لا، لا تجب عن هذا السؤال، ليست لديك إجابة على أيَّة حال».

سألْتُه: «هل تحتفظ بالقناع بعد أن تنتهي من عملك؟».

«ربما أظَلُّ به لأيام»، صمَتَ لحظة، ثم أكملَ: «أحيانًا أنظر إلى وجهي الحقيقي وأقول له أوحشْتَني، فيقول لي أنت أيضًا أوحشتني، أو يكون غاضبًا مني ولا يرُدّ».

«يُضايقك لو قلت إن فقرة المهرِّج تُشعرني بالحزن بدلَ أن تُضحكني؟».

هزَّ رأسه وتطلَّعَ إلى القمر، لمَعَتْ ألوان القناع.

قال: «هل تعرف لماذا خُلِقنا بوجه واحد لا يمكننا تبديله مثلما نبدِّل ملابسنا؟»، انتظرْتُ أن يُكمل، نظر إليَّ: «حتى يحمل وجهنا الواحد تاريخنا كله، ويعرفنا الآخرون عندما نفعل الأشياء، لو كان بإمكاننا تبديل وجوهنا أو إخفاؤها لملأنا العالم جنونًا».

قلت: «وأنت تمارس جنونك خلف هذا القناع؟».

«أكثر من ذلك، سَخرْتُ خلف قناعي من أشياء ضخمة، وأشخاصٍ مرعبين، سَخرْتُ من كل شيء وكل واحد أردتُ السخرية منه، نكَّلت بهم، وكانوا يضحكون».

«بالضبط، كانوا يضحكون».

«تقصد لأني مُجرَّد مهرِّج»، أمسَكَ بكتفي ونظر في عينيَّ: «لكني كنت أنظر في عيونهم مباشرة عن قُرْب، كانوا يرون نظرتي، تأكَّدْتُ أنَّ كل واحدٍ منهم رآها بوضوح، وعرف أني أعني ما أقوله وأفعله، فتتلاشى ضحكته المصطنعة»، صمَتَ لحظة، وقال: «صَدِّق أني أرعبتهم، وبالطبع لم يكن أيٌّ منهم ليؤذي المُهرِّج».

صدَّقتُ نبرة صوته وتخيَّلتُه وهو يُنكِّل بهم، هزَزتُ رأسي موافقًا، لم يتركني حتى تأكَّد أني صدَّقتُه، ابتسمَ ومشينا.

قلت: «أتساءل كيف يكون القناع حزينًا، ويضحك منك الناس».

«اسألهم»، ضحكَ، مشى بظهره وهو ينظر إليَّ: «هل تُصدِّق أني، المُهرِّج، أهَمُّ فقرة في السيرك؟».

«ربما».

«هذا أكيد، لو فشلْتُ أنا يفشل العرض كله، كما أني أُعاقَب على الفور من الجمهور، يقذفوني بالفاكهة، بقايا الطعام، أيّ شيء، لا يتعاطف معي أحد، لكنهم يتعاطفون مع مُروِّض الأُسُود لو هاجمه أسد، ولاعب الأكروبات لو سَقَط، صحيح؟».

هزَزْتُ رأسي.

قال: «رغم أن عملهم سهل، يمكنك بسهولة أن تروِّض الأسد، أو النمر ما دُمْتَ تملك تجويعه وإطعامه، يمكنك بالتدريب أن تمشي فوق الحبل، حتى أن تطير في الهواء، لكن أن تُضحِكَ الناس؟ وتفعل هذا كل يوم؟ هذا هو التحدِّي».

«هل حدث ولم تُضحكهم يومًا؟».

توقف عن المشي بظهره، ومشى إلى جواري.

قال: «لا، ولكني انسحبْتُ مرتين من العرض، حدث وقتها أن خرجْتُ إلى المسرح وتجمَّدتُ بمكاني، لم أعرف لماذا، فقط عرفْتُ أني لن أُضحِكَ أحدًا».

«بلا سبب؟».

«نعم، بلا سبب»، ضحك ضحكة قصيرة، قال: «وعندما كانت هناك أسباب تمنعني من إضحاكهم، خرجْتُ إليهم وأضحكتهم كثيرًا».

قلت: «أعرف أنَّ المُهرِّجين يُضحِكون الناس رغم ألمهم الشخصي».

«هذا حقيقي»، قفزَ عدَّة خطوات إلى الأمام، ثم قال: «الضحك، تخيَّل العالم بلا ضحك، تخيَّل أن الإنسان لا يضحك أبدًا»، قفز إليّ، وضعَ إحدى يديه فوق رأسي، والأخرى على فمي: «لا، أرجوك لا تتخيَّل هذا، ولا تَقُلْ عنه شيئًا»، رأيت في عينيه رعبًا، أومأت، نظرَ في عينيَّ ليتأكَّد أني لن أتخيَّل العالم بلا ضحك.

«لا تفعل» قالها، ورفَعَ يديه عني، ابتسَمَ، فتحَ ذراعيه، دارَ حول نفسه مرتين وهو يقول:

«تعرف؟ فُزْتُ بنساء كثيرات، فقط لأني أضحكتهن»، توقف في منتصف الشارع.

قال «هل تعرف من هو أغبى رجل في العالم؟».

«هناك احتمالات كثيرة».

تلفَّتَ حوله إلى البيوت، وقال بصوت مرتفع، كأنما يريد أن يُسمِعَ الجميع.

«أغبى رجل في العالم هو مَنْ لا يستطيع إضحكاك حبيبته»، مرَرْتُ إلى جواره وأنا أبتسم، سمِعْتُه يُكررها:

«أقولها لكم، أغبى رجل هو مَنْ لا يستطيع إضحاك حبيبته».

قلت دون أن أنظر إليه:

«نعم، أوافقك».

انتبَهْتُ بعد عدَّة خطوات أنه ليس بجواري، نظرتُ خلفي، رأيته واقفًا هناك، سألتُه:

«لماذا توقفْت؟».

هَزَّ كتفيه، ولَمَع قناعه الحزين في نور القمر، صَمْتٌ لحظات.

قلت: «حسنًا، ترغب في العودة»، لم يَرُدّ، ابتسمْتُ.

لوَّحَ لي.

قال: «أتمنَّى لك رحلة مُدْهِشة».

قلت: «أتمنَّى لك ألا تتوقف عن إضحاك حبيبتك».

ضحِكَ واستدار عائدًا، يؤرجح ذراعيه، يقفز بين خطوة وأخرى، يدور حول نفسه، كتلة صغيرة من ألوان واضحة، غامضة، استدرْتُ قبل أن يختفي عن عينيّ، ومشيت.

البائع المتجوِّل.

تجوَّلْتُ في شوارع المدينة، الجميع في السيرك، ربما الموتى أيضًا، سمعْتُ صوت هارمونيكا من شارع قريب، شعرْتُ أنها تقصدني، جريْتُ إليها، وجدْتُ الشارع خاليًا، سمعْتُ الهارمونيكا في شارع آخر، جريْتُ إليه، لم أجد أحدًا، تكرَّر الأمر عدَّة مرات، قلتُ بصوت مرتفع:

«حسنًا، أريد الخطوة التالية في اللعبة».

سمِعْتُ رجلاً يضحك، ورأيت في شارع متقاطع عربة خشبيَّة يَجرُّها حصان، يقف فوقها رجل يعزف الهارمونيكا، ويمشي بجوارها كلب، عبروا الشارع، جريْتُ إليهم ودخَلْتُ خلفهم، قابلني نور الشمس، غَطَّيْتُ عينيَّ بيدي لثوانٍ، ثم رأيت الرجل يقف بجوار عربته، وبيده الهارمونيكا.

قال: «هذه هي الخطوة التالية»، خلفه شمس وسماء صافية، إنه الصباح هناك، نظرْتُ خلفي، رأيت ليلاً ومدينة هادئة في بُعْد آخر، نظرْتُ إلى الرجل.

قال: «هل نبدأ؟ أنا بائع متجوِّل».

أعجبني إيقاع أن أقول: «وأنا كاتب متجوِّل».

مشيْتُ معه.

كان يرتدي قميصًا أبيض خفيفًا، وبنطلون قماش واسعًا، مُخطَّطًا بالأحمر والأصفر، العربة مُحَمَّلَة بأشياء في حالة فوضى: برميل صغير بلا غطاء، كتب قديمة، قراطيس ورقيَّة، لوحات معدنيَّة، وخشبيَّة، قطع حجارة مستطيلة، وغيرها.

سألني البائع: «أول تجوال لك في العالم؟ أعرف أنك تتنقل في الزمن والمكان».

«كيف عرفْت؟».

ابتسمَ.

قلت: «حسنًا، أنت أيضًا تتنقل، وبما أنك عرفت أني أتنقل ولم أعرف عنك ذلك، فهذا ليس أول تجوال لك».

«نعم، والخطوة التالية في اللعبة هي أن تبقى معي لبعض الوقت، أو يمضي كلٌّ مِنّا في طريقه»، نظرْتُ إلى بضاعته.

«ماذا تبيع؟».

«هذه ليست الطريقة الصحيحة لتعرف».

«حسنًا، إلى الخطوة التالية، أنا معك».

أَمسَكَ البائع بلِجام الحصان، وقال:

«ضَعْ يدك على العربة كي تنتقل معي»، وضعْتُ يدي على حافة عربته، نظرَ إلى الحصان.

قال: «لنَبغ بعض الأشياء»، هزَّ اللِّجام مرة واحدة: «سيجا بيجا».

انتقلنا إلى شارع آخر، الوقت ليل، وكل شيء حولي مختلف عن الشارع الذي كنت فيه، أدركْتُ أني في زمن ومكان جديدَيْن.

قلت: «يبدو أنك تختار المكان الذي تنتقل إليه».

«نعم».

«أنا.. لا أستطيع ذلك».

«لأنه تجوالك الأول، في كل تجوال تكتسب ميزة جديدة، وربما تحصل على عِدَّة ميزات في تجوال واحد، الأمر مرهون بك».

سألْتُه: «بعد كم تجوال حصُلْتَ على ميزة الاختيار؟».

«ثلاثة»، قالها وقفزَ إلى سطح عربته، عزفَ «الهارمونيكا» ورقَصَ، ظهرَ من كل مكان في الشارع أطفال وصِبيَة، أولاد وبنات، كلٌ منهم يُمسك بفَرْدَة حذاء قديمة، رقصوا على موسيقاه، وعندما توقَّف عن العزف، تزاحموا عليه ومَدُّوا أيديهم بالأحذية، وهم

يقولون: «أنا، أنا، أنا»، ويضحكون، يأخذ الأحذية، فيُفَتش الواحد منهم في أشياء العربة، ويُخرِج يدَه بشيء ما، ويسأل البائع: «ما هذا؟» أو «كيف يعمل؟»، يشرح البائعُ له بجُملة أو جملتَين، يُجرِّب المشتري بضاعته، ويجري بها، أو يقف على بُعْد خطوات.

رأيتُ فتاة تأخذ من العربة سوارًا فضيًا، وبمجرد أن لَفَّتْه حول معصمها تبدَّلَت ملابسها بملابس جديدة، وظهَرَ في قدميها حذاء جديد، دارت الفتاة حول نفسها وضحكَتْ، خلَعَت السوار، عادت إليها ملابسها القديمة، وحذاءها القديم، وضَعَت السوار حول معصمها، ظهرَت عليها ملابس جديدة، ضحِكَت، خلَعَت السوار، عادت إليها ملابسها، ابتعدَت الفتاة وهي تضحك، وبين لحظة وأخرى تظهر عليها ملابس جديدة، ثم تعود إليها ملابسها القديمة.

فكَّرْتُ أن بضاعة «البائع المتجوِّل» لن تكفيهم جميعًا، لكن بعد أن أخذ كلٌّ منهم شيئًا ما، كانت العربة ما تزال مزدحمة بالبضاعة.

جَمَعَ البائعُ الأحذية القديمة، عَبَّأها في جوال مُعلَّق بمؤخرة العربة، نظرَ إليَّ، ورقَصَ حول نفسه رقصة صغيرة وابتسم.

قلت: «تبيع أشياء مسحورة مقابل أحذية قديمة؟».

قال: «إنها أشياء عادية».

«رأيتُ ماذا تفعل أشياؤك العادية».

«حسنًا، اعتبرها مسحورة لو أنك تراها مسحورة».

«وماذا تفعل بالأحذية القديمة؟ أنت حتى لا تحصل على فردتَين متشابهتَين».

فتحَ يديه.

«لا بد أن آخذ شيئًا مقابل بضاعتي، أنا بائع متجوِّل ولستُ المُتبرِّع المتجوِّل، فقط أحاول أن أُسهِّل الأمر عليهم، يمكن لأيّ واحد منهم أن يجد فردة حذاء قديمة».

نظرْتُ إلى عربته.

«هل يمكن أن أُلقي نظرة على بضاعتك؟».

«الآن تستحق ذلك».

اقتربْتُ من العربة، نقلْتُ عينيَّ بين بضاعته، كلما أزحْتُ شيئًا رأيت آخر أسفل منه، أمسَكْتُ بكتاب قديم، عنوانه «أغرب أحلام الأطفال»، تصفَّحْتُه، رسومات بخطوط بسيطة لأطفال نائمين، وحكايات بلُغات مختلفة، وجدْتُ نسخة من كتاب «ألف ليلة وليلة»، فتَحْتُه، أوراق صفراء لها رائحة قديمة مُحَبَّبَة.

سألتُه: «نسخة كاملة؟».

قال: «كل نُسَخ ألف ليلة وليلة ناقصة، الكتاب ستنقصه دائمًا عشر حكايات، ربما تعرف شيئًا عن ذلك خلال تجوالك».

أعدْتُ الكتاب، سحَبْتُ قطعة خشبية صغيرة، مستطيلة الشكل، محفورة فيها جملة واحدة، باللغة اللاتينية، قرأْتُها بصوت مسموع:

«Caelius amores Aurelia»، «كاليوس يُحب أوريليا».

سحَبْتُ قطعة من حجر خفيف، مُرَبَّعَة الشكل، منقوشة فيها جملة واحدة، باللغة الإسكندنافية القديمة، قرأْتُها:

«Agnarr ann Magnhildr»، «أجنار يُحب ماجنهيلدر».

طرَقْتُ البرميل، وسألْتُ البائع:

«ماذا لديك هنا؟».

«ليس الآن»، ضحكَ الكلب، التفَتُّ إليه.

«بما أنك تضحك، هل يمكن أن تقول لي اسمك؟».

قال الكلب: «اسمي «يَضحكُ كثيرًا»، وضَحِك، التفَتَ إليَّ الحصان، وقال: «وأنا «صانع الفقاعات»، رفَعَ رأسه قليلاً، فتَحَ فمه، وأطلقَ منه فقاعات ملوَّنة تصاحبها غرغرة خفيفة، ابتسمْتُ ونقلْتُ عينيَّ بينهما:

«أهلاً بكما».

سألْتُ البائع: «لماذا لم تُعرِّفني بهما من البداية؟».

«يفعلان بنفسيهما عندما يريدان ذلك»، صمَتَ لحظة، وقال:

«والآن، اِلمِسِ العَرَبَة، لنَبغْ بعض الأشياء»، أَمسَكَ بلِجام حصانه، هَزَّه: «ساكو ماكو».

انتقلنا إلى شارع في مكان وزمن جديدَيْن، الوقت نهار، قفز البائع فوق العربة، عزفَ الهارمونيكا ورقَص، ظَهَرَ الأولاد والبنات وبأيديهم أحذية قديمة، رقصوا معه، أعطوه الأحذية وأخذوا أشياء عادية كما يقول، سحريَّة كما أقول.

دخل البائع بالعربة إلى مكان واسع من الشارع.

قال لي: «الآن أُعرِّفُكَ ماذا في البرميل، أنا بائع متجوِّل ولستُ البائع الذي لا يريد للآخرين أن يعرفوا الأشياء»، ملأ أحد القراطيس الورقيَّة من البرميل، كان سائلاً أحمر فوسفوريًّا، لم يتسرَّب من القرطاس، ربما حتى لم يُبَلِّل الورقة.

قال: «هذا مانع الجاذبية الأرضية»، ضحكَ الكلب، أكملَ البائع: «ترشُّه على الأرض فيمنع الجاذبية، ويمكنك عندها أن تطير، هل تُجرِّب؟»، أومأت، سكَبَ البائع من السائل على الأرض، وصنع دائرة قطرها خمسة أمتار تقريبًا، أعطاني القرطاس.

«رُشّ ما تبقَّى من السائل داخل الدائرة، وطِرْ، وما دام لونه أحمر ستظلُّ طائرًا، وعندما يتحوَّل إلى الأزرق، فهذا يعني أنه بدأ يفقد مفعوله، وبدأت الأرض تستعيد جاذبيتها، ويمكنك عندها الهبوط»،

ضحكَ الكلب، نظر البائع إليه، ثم إليّ، وقال: «في الحقيقة يجب أن تهبط عندما يتحوَّل إلى الأزرق، لأنه سيفقد مفعوله بعد وقت قليل، وعندها تسقط مثل حجر»، ضحك الكلب، وضحِكْتُ.

بَعثَرْتُ السائل الأحمر داخل الدائرة، وجدْتُ نفسي أرتفع عن الأرض، ارتبكْتُ في البداية، تمالَكْتُ نفسي، ارتفَعْت أكثر، كان السائل الأحمر يلمع على الأرض، طِرْتُ داخل حدود الدائرة، فتحت ذراعيَّ مثل طائر، تناغمْتُ مع الهواء، وقمْتُ بحركات بهلوانية، سمعْتُ ضحكات الكلب، ضحِكْتُ، كانت فقاعات الحصان الملوَّنة تدور حولي، بقيتُ طائرًا حتى رأيت لونًا أزرق فوسفوريًّا على الأرض، أنهيْتُ حالة الطيران، وترَكْتُ نفسي للجاذبية الأرضية، بدأتُ أهبط بخفَّة، لمسْتُ الأرض بقدميّ، كانت خطواتي بين الطيران والمشي، تجوَّلْتُ داخل الدائرة حتى تبخَّر السائل واستعادت الأرض جاذبيتها كاملة، شعرْتُ لوهلة أني نسيت المَشْي، مشيْتُ عدَّة خطوات بطريقة غريبة، ثم استعدْتُ مِشيتي الطبيعية.

قال البائع المتجوِّل: «هي لعبة مُخصَّصَة للصغار على أيةِّ حال، أحيانًا يأخذون كميات كبيرة من السائل، ليغطُّوا به مساحة كبيرة من الأرض ويطيرون»، كنت ما أزال داخل إحساسي بالطيران لأول مرة.

انتقلنا بين شوارع كثيرة، فقط يهزُّ البائع لِجام الحصان، ويقول في كل مرة كلمتَين لهما إيقاع ما، فأجد نفسي في زمن مختلف، ومن وقت لآخر أُقَلِّبُ في بضاعته السحريَّة، العاديَّة.

قال البائع: «هل تعرف ما هو أهمُّ شيء في التجوال؟»، انتظرْتُ أن يُكمل، قال: «الدهشة، أن ترى ما يُدهِشك، بشرط أن تكون أنت نفسك قادرًا على الاندهاش، هناك من لا يستطيعون ذلك، مهما قدَّمَ لهم العالم».

قلت: «لكن الدهشة برأيي لا تعتمد على الرؤية بالعين، وإنما على البصيرة، والروح، والحساسية تجاه العالم، ليس شرطًا أن ترى العالم بعينيك كي تراه بالفعل».

«صحيح، مَنْ يفتقد البصيرة لا يرى روح الأشياء، ولا يمكنه أن يندهش»، تطلَّعَ حوله: «أنظر إلى العالم، أروع الأشياء المدهشة مجانيَّة، البحر، السماء، المطر، الليل، النهار، الهواء، الشروق، الغروب، يظلُّ العالم موجودًا ما دمنا نندهش لأشيائه الجميلة، ويموت حزنًا لو توقفنا عن الدهشة»، ابتسمَ، وقال: «الحب ليس إلا لحظة استثنائية من الدهشة».

ابتسَمْتُ وقلت: «الحب، الدهشة، والشغف».

قال: «والجمال، والدهشة قرينة الجمال»، صمَتَ لحظة، وأكمل: «أنتم الكُتَّاب والفنانون تبذلون أرواحكم كي تروا نظرة الدهشة في

عيون الآخرين وأرواحهم، صحيح؟ أقولها لك، اندَهِش أنت أولًا، عندها يمكنك أن تكتب كتابة مُدهِشَة، وتُحب حُبًّا كبيرًا».

قضيتُ مع «البائع المتجوِّل» ما قدَّرْتُ أنه يوم كامل، دخلْتُ خلاله أكثر من ليل، وأكثر من نهار.

قال لي: «والآن، هل هناك مكان تحب أن تذهب إليه؟».

«أهذه طريقتك لتودِّعني؟».

أومأ برأسه.

«نعم صديقي، فَكِّر، أيّ مكان تختاره في أيّ زمن».

فكَّرت، أماكن كثيرة تومض برأسي وتتلاشى، لمَحْتُ كتاب «ألف ليلة وليلة» بين بضاعته.

قلت: «حسنًا، شهرزاد، ألف ليلة وليلة».

«في الحال، استَعِدّ».

وضعْتُ يدي على العربة، هزَّ لجام حصانه:

«شَهْرا مَهْرا».

انتقلنا إلى طريق واسع تَحُفُّه أشجار، الوقت ليل، القمر مكتمل، وفي نهاية الطريق قصر كبير له قباب زرقاء، ويتسرَّبُ من نوافذه نور أبيض.

«قصر شهرزاد»،قال البائع، صمَتَ لحظة، وأكملَ: «أُذَكِّرك أنَّ هناك حُرَّاسًا، الأمر حقيقي».

«لا تقلق».

نظرَ إلى بضاعته.

«حسنًا، يمكنكَ أن تختار هدية لنفسك».

«قُلْتَ عن نفسك أنكَ بائع متجوِّل ولستَ البائع المُتبرِّع».

«يمكنني أن أحتفل معك بأول تجوال لك في العالم، أنا بائع متجوِّل ولستُ البائع الذي لا يحتفل».

ابتسَمْتُ، ونظرْتُ إلى بضاعته.

«لديك أشياء مُغرية جدًّا، لدرجة أني لن أستطيع أن أختار منها».

«لكنكَ لم ترَ كل ما لديّ».

«أعرف ذلك».

«حسنًا، سأريك شيئًا ربما يغويك بزيادة لتأخذه».

«الآن أنت البائع الذي يحاول إغوائي».

مَدَّ يده في جانب العربة، وأخرج عِدَّة طاقيَّات قُطنيَّة ملوَّنة.

قال: «ماذا تتوقَّعُ أن تكون؟».

«أحد أشيائك العادية، ربما تكون طاقية الإخفاء مثلاً»، ضحِكَ الكلب، ووضَعَ البائع طاقية على رأسه فاختفى، سمِعتُ صوته يقول:

«هل تراني؟»، تلفَّتُّ حولي، ومرَّرْتُ يديَّ في الهواء.

«لا، يُمكنكَ أن تُظْهِر نفسك الآن».

ظهر أمامي، وهو يرفع الطاقيَّة عن رأسه، مَدَّ يده بها إليّ.

«جَرِّبها».

أخذتُها، قلَّبْتُها في يديَّ، قطن دافئ، حمراء بخَطّ أزرق داكن، ورائحتها جديدة، ارتديتُها، نظرْتُ إلى نفسي، لم أرَني، ضحِكْتُ، سألتُ البائع:

«هل تراني؟»، شعرْتُ بيدٍ تُمسك ذراعي دون أن أراها، سمِعْتُ صوت البائع يقول:

«أراك وأُمسك بك، هل تراني أنت؟»، ضحكَ الكلب، تلفَّتُّ حولي، لم أرَ البائع، سمِعْتُ صوته يقول:

«اِخلَع طاقيتك»، خلعْتُها، رأيته يظهر أمامي، وهو يخلَعُ طاقيته، حرَّكَ يده بها.

«هذه الطاقية تجعلك ترى مَنْ يرتدي طاقية الإخفاء، دون أن يراك».

قلت «أشياؤك العادية لا تنتهي»، مدَّ يده إليَّ بطاقيّته.

«خذها»قال، نظرْتُ إليها وفكَّرْتُ، مَدَدْتُ يدي إليه بالطاقية التي معي.

«لا أعتقد ذلك».

«ربما تحتاجها هناك»، نظرَ إلى القصر عند نهاية الطريق.

«أنا كاتب متجوِّل ولست الكاتب المُتَسَلِّل».

ابتسمَ: «أنت تلاعبني، يعجبني هذا»، صمَتَ لحظة، وقال: «الآن أتركك لتجوالك».

قلت: «استمتعْتُ بوقتي معك، وأشيائك العادية»، تنفَّسَ البائع بعمق.

قال: «هل تعرف ما أتمنَّاه»، انتظرْتُ أن يُكْمِل.

«أتمنَّى أن أبدأ حياتي من جديد لأستمتع كما يجب بكل ما يُدهشني، مهما كان بسيطًا، أستمتع بإحساس تجربتي الأشياء للمرة الأولى».

ابتسمْتُ وقلت: «أتمنَّى لك ذلك».

اِبتسمَ وقال: «وأنا أتمنَّى لك أن يحُطَّ طائرٌ على كتفك».

ودَّعْتُ الكلب والحصان، أمسكَ البائع باللِّجام، وضَعَ الكلبُ

يدَه على عجلة العربة وضَحِك، التفَتَ إليَّ «البائع المتجوِّل».

قال: «اِندَهِش تحيا».

هَزَّ اللِّجام:

«توكا يوكا»، وانتقل.

شهرزاد.

مشيتُ باتجاه القصر، بدا طافيًا، كأني أنظر إلى شيء قرأته في حكاية، عند نهاية الطريق ظهر أمامي جسر خشبي صغير فوق رافد نهري، عَبَرْتُه، سور القصر على بُعْد أمتار، ليس مرتفعًا، اقتربْتُ من بوابة كبيرة، ظهر لي حارسان يرتديان الملابس التي يرتديها الحُرَّاس في حكايات ألف ليلة وليلة، كلٌّ منهما يُمسك رُمحًا، ويُعَلِّق سيفًا في جانبه، سألني أحدهما: «من أنت وماذا تريد؟».

«أنا متجوِّل»، نظرْتُ إلى القصر: «وأريد أن أقابل شهرزاد ألف ليلة وليلة».

قال الحارس: «شهر زاد ألف ليلة وليلة؟ ماذا تقصد؟ أنت مخبول؟»، انتبهْتُ إلى أنه لم يعرف بكتاب «ألف ليلة وليلة».

قلت: «شهرزاد راوية الحكايات لشهريار».

«تقصد الملك شهريار»، مرَّرَ عينيه على ملابسي.

«ما هذه الملابس المخبولة التي ترتديها؟»، نظرْتُ إلى قميصي وبنطلوني العاديَّيْن.

«وماذا تُخبىء في الحقيبة التي تُعلِّقُها بكتفك؟»، فتَحَ البوابة بما يسمح له أن يَمُدَّ يده، جذبني من ملابسي المخبولة للداخل، ترَكْتُ نفسي له.

«ماذا تكون بالضبط؟».

«أنا متجوِّل، وأريد شهرزاد».

قال الحارس لزميله: «سنذهب به إلى رئيس الحرس».

«لنُفَتشه أولاً»، فتَّشَني الحارس الثاني، وساعدْتُه في فتح حقيبتي.

قلت: «لا شيء، أقلام وأوراق وبعض الملابس المخبولة».

اقتادني الحارسان، وكل واحدٍ منهما يُمسك بأحد ذراعي، لم أشعر بقلق، أتطلَّع إلى ساحات القصر، ممرَّات تحفُّها ورود وأشجار، نافورات، طيور ليليَّة ملوَّنة، والقصر بقبابِه وشُرفاته، رأيت شابة تقف في شُرْفة قريبة، وتقرأ كتابًا، عرفْتُ أنها هي، فقط عرفْت.

ناديتها: «شهرزاد».

نظرَتْ إليّ، لكَزَني أحد الحارسَيْن بكوعه:

«أُصمُت، مخبول أنت».

«عندي لكِ حكاية، شهرزاد»، رفعَتْ يدها، توقف بي الحارسان، اتجهْتُ إليها، مَشِيَا معي، توقفْتُ عند الشرفة.

«حكاية لا تعرفينها».

«إنه مخبول، سنذهب به إلى رئيس الحرس»، قال الحارس المسئول عن الخَبَل، تأمَّلَتْني «شهرزاد» قليلاً، قالت للحارسَين:

«أَدْخِلاه القاعة البيضاء».

أخذني الحارسان إلى قاعة جدرانها بيضاء، بها رسومات بارزة لطيور وأشجار، أرضها مُرَبَّعات من رخام أبيض، مقاعد وكَنَبات خشبية فوقها وسائد مُبطَّنة ومزخرفة بخيوط فضيَّة، وفي المنتصف منضدة، فوقها طبق كبير مليء بالفاكهة، لفَتَ نظري عنب أحمر كبير الحجم.

دخلَتْ «شهرزاد»، شابة في الخامسة والعشرين ربما، قامَتها معتدلة، شعرها أسود، متوسط الطول، مفروق من المنتصف بموجَتَيْن حول وجهها، ترتدي طقمًا من قطعتين بلون العنب الأحمر: قميص ينتهي عند خصرها، له أزرار من قماش، مُطَرَّز عند الصدر والكُمَّيْن بخيوط فضيَّة، وبنطلون ليس ضيقًا ولا واسعًا، وفي قدميها حذاء من نايلون وقماش رقيق، وبيدها الكتاب.

أمرَت الحارسَين بالانصراف، نظرَتْ إليَّ، ابتسمَتْ وقالت:

«أهلاً بك»، لمَحتُ غمَّازة في خدِّها الأيمن، أشارت إلى مقعد مُبطَّن، وقالت: «تفَضَّل».

جلسْتُ وحقيبتي بجواري، كانت «شهرزاد» على مقعد قريب، شمَمْتُ منها رائحة ورد، وضعَتْ يدها بالكتاب فوق ركبتها، لمحْتُ في إصبعها خاتمًا من عقيق أزرق.

قالت: «هل أنت جائع أو تريد أن تشرب شيئًا؟».

عيناها بُنيَّتان ومسحوبتَان بخِفَّة.

«شكرًا شهرزاد»، مرَّرْتُ عينيَّ على كتابها:

«ماذا تقرأين؟».

«كتابًا عن بناء السفن».

صمَتُّ لحظة.

«تعرفين أنكِ موجودة في كتاب اسمه ألف ليلة وليلة؟».

«نعم، أعرف».

«كيف عرفتِ أنكِ موجودة في كتاب يُفترَض أنه ظهر بعد أن... تعرفين».

«تقصد بعد أن مِتُّ، حسنًا، ليس أكيدًا أنَّ الكتاب ظهَرَ بعد موتي، أعتقد أن لا أحد يعرف متى ظهر بالأساس».

«الكتاب يحكي عنكِ، حكاياتك لشهريار».

«هذا يردُّنا إلى السؤال نفسه: هل أنا مَنْ حكيْتُ الحكايات، أم هي مَنْ حَكَت عني؟»، رأيت مع انعكاسات الضوء لونًا جديدًا في عينيها، أخضر داكن.

قلت: «لم تقولي كيف عَرفْتِ بكتاب ألف ليلة وليلة؟».

«لهذا حكاية صغيرة»، صمتَتْ لحظة، وقالت: «لكنكَ أيضًا لم تَقُلْ لي مَنْ أنت، ومِن أين أتيت».

«أنا مُتجوِّل، أكتب حكايات، واعتبري أني جئتُ من كتاب للحكايات».

ابتسمَتْ «شهرزاد» بغمَّازَتِها.

«حسنًا يا مَنْ تكتب الحكايات وجِئتَ من كتاب للحكايات، سأحكي لك كيف عرفْتُ كتاب ألف ليلة وليلة»، وضعَتْ كتابها بجوارها، قالت: «عندما طلبني «شهريار» للزواج»، هزَّتْ رأسها «في الحقيقة أنا من طَلَبْتُه، مُتهَوِّرة، عندها جعَلَتْني جدَّتي «عشق زاد»، الحكَّاءة العظيمة، أمشي داخل حكاياتها، وهناك، رأيت أني لن أُقتَل، سأحكي، ويُحْكَى عنِّي، وأنَّ كتابًا اسمه ألف ليلة وليلة سيضمُّ الكثير من تلك الحكايات، رأيت نُسَخًا كثيرة من الكتاب بلُغاتٍ مختلفة في أزمنة مختلفة، ولم أعرف إنْ كان قد ظهر قبلي أم بعدي، وأعجبني هذا».

«الحكايات أنقذَتْ حياتك (شهرزاد)، لولاها لأطاح (شهريار) برأسك»، تلفَّتُّ حولي: «بالمناسبة، أين هو؟».

«تأخَّرتَ في السؤال عنه، تذكَّرْتُه عندما تحدَّثْتَ عن الإطاحة بالرأس؟(شهريار) في رحلة صيد، لن يعود قبل عِدَّة أيام»، صمتَتْ لحظة، وقالت: «أنت تعتقد أني أحكي فقط كي لا يطيح (شهريار) برأسي؟ لقد عرفتُ أني سأبقى حيَّة بعد الليلة الأولى، عُقْدَة كل واحدة تزوَّجَها قبلي (شهريار) كانت أنْ تبقى حيَّة ليلة أخرى، لو أنَّ واحدة استطاعت ذلك بأيَّة طريقة لبقيَتْ حيَّة، وأنا فعَلْتُها، حكيْتُ في الليلة الأولى لأنقذ رأسي، وأحكي في بقية الليالي لأنقذ روحي»، تنهَّدَتْ: «الحكايات تنقذ روحي، أُحبها مثلما تحب أنت أن تكتبها، مثلما يحب الموسيقي موسيقاه، والرسَّام لوحته، والشاعر قصيدته، ولأجل روحي لا يمكنني التوقف عن الحَكْي».

«أفهَمُكِ شهرزاد».

«يذهب (شهريار) في رحلات صيد تمتد لأسابيع، هل أتوقف عن الحكي؟ لا، أحكي لمن في القصر، الجواري، البستاني، الطاهي، هم حتى يعرفون حكايات لا يعرفها شهريار».

قلت: «وليست موجودة في أيَّة نسخة من كتاب ألف ليلة وليلة».

قالت: «أو أنها موجودة في نُسَخ لم تُكتشَف بعد».

«دائمًا ما اعتبرْتُ ألف ليلة وليلة كتابًا مفتوحًا، يمكن لأيّ أحد أن يضيف إليه، أو يكتشف عنه حكايات جديدة».

«وفي كل الأحوال ستنقصه دومًا عشر حكايات».

تذكَّرْتُ ما قاله لي «البائع المتجوِّل» عن تلك الحكايات العَشْر الناقصة.

قالت شهرزاد: «حتى لو اُكتشِفَتْ إحدى هذه الحكايات، لن يتغيَّر شيء، سيظل الكتاب ناقصًا عشر حكايات».

«كيف؟».

«يبدو أنَّ لهذا حكاية لا أعرفها، على أيَّة حال، يعجبني هذا الغموض، أعتقد أنه يلائم كتاب ألف ليلة وليلة»، نظرَتْ بعيدًا، سحبَتْ نفسًا عميقًا، وقالت: «الحكايات تَشْفي، شُفِي (شهريار) بالحكايات، وأَحبَّني»، نظرَتْ إليّ، ابتسمَتْ: «والآن، هل تحب أن أصحبك في جولة بالقصر؟ أم أنْ تأكل شيئًا أولًا؟».

نهَضتُ وأنا أُعَلِّق حقيبتي بكتفي.

غادرنا «القاعة البيضاء»، مشينا في مَمَرّ جدرانه من رخام أخضر فاتح، به رسوم لغزلان ونمور، وصلنا إلى قاعة واسعة، توقفَتْ عندها «شهرزاد».

قالت: «قاعة النمر والغزالة».

تحوي القاعة منحوتات لنمر يطارد غزالة في أوضاع مختلفة، مشيْتُ بينها، أتأمَّلُها، نمر ضخم، انسيابي، بعينين ناريَّتَيْن، خطوطه البرتقالية والسوداء المميزة، عضلات جسده واضحة، أنيابه، مخالبه، ذيله المنتصب، والغزالة بلون بُنِّي أحمر، جسد رشيق، عينان سوداوان مفتوحتان عن أخرهما، وفيهما رعب وحياة، لا تزيد المسافة بين النمر والغزالة في كل لقطة عن ذراع واحدة، تَقِلُّ أحيانًا، أكاد أشعر أنفاس النمر على وجهي، وأسمع دقات قلب الغزالة، يبدو لي أنه سيقبض عليها بالفعل، لكني أراها في المشهد التالي وقد ابتعدَتْ عنه قليلًا، أنقل عينيَّ بسرعة بين اللقطات، أُفسِحُ للغزالة كي تهرب، تنعطف فجأة لتُغَيِّر اتجاهها، فتحفر مخالب النمر في الرخام، وهو يُغَيِّر اتجاهه خلفها، أتنقَّل بين المنحوتات، أدور مع مشاهد المطاردة، النمر غاضب، نافد الصبر، والغزالة خائفة، ومُتمسكة بالنجاة.

توقفْتُ عند إحدى المنحوتات: الغزالة تقفز لأعلى بجسدٍ مُنثنٍ، وإحدى أقدامها تلامس الأرض بالكاد، بدَتْ كأنها ستصعد ولن تعود، النمر خلفها، يحاول الوصول إليها، وذراعه ممدودة بيأس.

التفَتُّ إلى «شهرزاد».

قلت: «النمر لم يمسك بالغزالة».

«صحيح، أنت تقف عند النحت الأخير في المطاردة».

انتقلنا إلى قاعة بلا سقف، أرضها من زجاج تنعكس فيه السماء، بقمرها، ونجومها، حتى إني رأيت السحاب يتحرك، كأنَّ السماء هبطَتْ بنفسها، مشيتُ فوق الزجاج مع «شهرزاد»، أنقل قدميَّ بين النجوم، أحاول أن أتفاداها.

قالت شهرزاد: «هل يمكنك أن تتعرَّف إلى مجموعات النجوم، أو تعرف نجمة باسمها؟»، تأمَّلْتُها لحظة، وهي واقفة بين سماءَيْن.

قلت: «سأحاول».

نقلْتُ عينيَّ بين النجوم على السطح الزجاجي، مشيْتُ عِدَّة خطوات، «شهرزاد» بجواري، أشَرْتُ إلى مجموعة من النجمات.

قلت: «مجموعة الدُّب الأكبر»، جلَسْتُ القرفصاء، مرَّرْتُ إصبعي فوق الدُّب، لمَعَتْ نجماته بزيادة، جلَسَتْ «شهرزاد» بجواري، نظرَتْ إلى الدُّب.

قالت: «صحيح، لكنها مجموعة شهيرة».

«دَوْركِ الآن، شهرزاد».

ابتسمَتْ ونقَّلَتْ عينيها على السطح الزجاجي، مشت عِدَّة خطوات وهي مقرفصة، وأنا إلى جوارها، توقفَتْ عند مجموعة من النجمات، مرَّرَتْ إصبعها عليها.

قالت: «مجموعة الفَرَس المُجنَّح».

قلت: «هذه أيضًا مجموعة شهيرة».

ضحِكَتْ وقالت: «الآن دورك».

ظللنا نتحرَّك متجاورَيْن في وضع القرفصاء، نُحدِّد مجموعات النجوم، ونتعرَّف إلى نجمات مفردة بالاسم، وكلما مرَّرْنا إصبعنا فوق نجمة ازدادت لمعانًا، أنظر إلى السماء، فأرى النجمة التي نلمسها تلمع هناك أيضًا، لم أكن أعرف كل مجموعات النجوم، ولا أسماء كل النجمات، كنت أُكَوِّن شكْلاً ما وأُمَرِّرُ عليه إصبعي، فيتشكَّل معي، وتلمع نجماته، أو أخترع أسماء لنجمات مفردة، تعرف «شهرزاد» ذلك وتضحك، تنزلق أقدامنا أحيانًا، أو تنهار من التعب، فنسقط، ثم نعاود اللعب، نتسابق مَنْ مِنّا يعثر على مجموعة جديدة، أو نجمة مفردة، كانت تسبقني، ومرَّات نختار معًا المجموعة أو النجمة نفسها، حتى توقفَتْ «شهرزاد»، مرَّرَتْ عينيها على النجمات في السماء، نظرَتْ إليَّ، ابتسمَتْ وقالت:

«الآن أصحبك إلى مكان ستحبه».

مشينا في ممَرّ جدرانه ملأى برسومات لكتب، أوراق متطايرة، ريشات للكتابة، وأبيات شعر من لغات مختلفة، توقفنا عند باب خشبي، به حفر بارز لكتاب.

فتحَتْ «شهرزاد» الباب، رأيت حجرة مكتب كبيرة، دخلنا، الجدران عبارة عن أرفف مرصوصة بالكتب، إلى يمين الباب

مكتب خشبي فوقه أوراق، ريشة للكتابة، دواة حبر، هناك أجزاء مكشوفة من الأرض الخشبية، وأجزاء أخرى مفروشة بقطع صغيرة من سجاد أزرق داكن، به رسومات لأشجار وطيور، رأيت أريكتَيْن في زاويتَين متباعدتَين، أمام كُلٍّ منهما طاولة خشبية صغيرة، وفي العمق ثلاثة مقاعد واسعة متقابلة، بينها طاولة دائرية، توقَّفَتْ عيناي عند قيثارة–Harp، كبيرة، تقف في مساحة خاصة قُرْب نافذة، وضوء أزرق ينعكس عليها من الخارج.

تطلَّعتُ في عناوين الكتب، تصفَّحْتُ بعضها، كانت مكتوبة بلغات مختلفة، في الحب، الشعر، الاختراعات، الموسيقا، الأدب، العلوم، التاريخ، كنت قريبًا من المكتب، رأيت فوقه ورقة فيها عِدَّة سطور.

قالت شهرزاد: «كنت أكتب».

قلت: «عفوًا»، وأبْعَدْتُ عينيَّ عن الورقة.

«يُمكنكَ أن تقرأها، مجرد خربشات».

أردتُ فقط أن أرى خَطَّ يدها، نظرْتُ في الورقة عن قُرْب، ليس بتركيز شديد كي لا أزعج «شهرزاد» حتى لو أنها سمحَتْ لي بالقراءة، أكَّدْتُ لها ذلك بقولي: «أريد فقط أن أرى خَطَّ يدك»، كانت الحروف مائلة قليلاً، دون مسافات كافية بين الكلمات، لم أتذكَّرْ شيئًا مما قرأتُ، لأني لم أقرأ.

مشيتُ إلى القيثارة، مرّرْتُ أصابعي على أوتارها.

سألَتني شهرزاد: «هل تستطيع العزف عليها؟».

«لا، وأنت؟».

ابتسمَتْ وقالت: «تُحب أن أعزفَ لك شيئًا؟».

حضَنَتْ «شهرزاد» القيثارةَ بخِفّة، ابتعدْتُ عنها عِدّة خطوات، كي أضمن رؤية شاملة لها، يعبر الضوء الأزرق من النافذة ويلمس شعرها، صدرها، وخاتم العقيق الأزرق بإصبعها، فيصنع منه نجمة زرقاء، مرّرَتْ أصابع يدها اليسرى على الأوتار لتوقظها، عَشراءِ إذًا، وبدأَتْ العزف، كانت البداية هي نفسها بداية سيمفونية «ريمسكي كورساكوف» الشهيرة «شهرزاد»، كِدْتُ أقاطعها، لم أفعل، ابتَسمَتْ وأومأتْ لتؤكّد لي ما أسمَعه.

توقفَتْ بعد أنْ عزفَتْ مقدمة السيمفونية.

قلت: «هذه سيمفونية 'ريمسكي كورساكوف' الشهيرة، أنتِ ألهَمْتِه بها وسَمَّاها باسمك».

قالت: «أعرف، قابَلْتُ 'كورساكوف' عندما كنت أتجوَّل في حكايات جدَّتي 'عشق زاد'، بقيْتُ معه ليلتَين حتى علَّمَني كيف أعزفها، وعلَّمْتُها أنا السيَّاف».

«السيَّاف يَعزف؟».

«نعم، كان سيُجَنّ بعد أن توقف عن قطع الرؤوس، ولم يكن لديه ما يفعله، أردْتُ أن أشْغِلَه بشيء، علَّمْتُه الموسيقا، شُفِي من جنونه، وداء قَطْع الرؤوس»، ابتسمَتْ: «الحكايات شَفَتْ شهريار، والموسيقا شَفَتْ السيَّاف».

قلت: «هل يمكنني أن أراه، السيَّاف؟»، نظرَتْ «شهرزاد» إلى الباب المفتوح.

نادَت: «لؤلؤة»، ظهرَتْ جارية شابة في فتحة الباب:

«نعم، شهرازد».

«هل يُمكنكِ أن ترسلي لي العازف؟».

«في الحال، شهرزاد»، قالت «لؤلؤة» وانصرَفَتْ.

قلت لشهرزاد: «لاحظْتُ أن ‹لؤلؤة› تحدَّثَتْ إليكِ باسمكِ دون لقب».

«نعم، الجميع يفعلون ذلك، طلبْتُ هذا بنفسي، اعترضَ ‹شهريار› لكني أقنعته، فقط لم يوافق للحرَّاس، أتفهَّم لماذا»، صمَتَتْ لحظة، قالت: «عندما تجوَّلْتُ في حكايات جدَّتي ‹عشق زاد› ورأيت كتاب ألف ليلة وليلة، وحكاياتي فيه، عَرفْتُ قَدْري، أحبَبْتُ اسمي المُجرَّد، وما يرمز إليه، هو أعلي من أيّ لقب يمكن

أن أحصل عليه، (شهرزاد) تعني حكايات، حتى أنا نفسي تلاشيْتُ في اسمي، وحكاياتي».

ظهَرَ «العازف- السيَّاف» في فتحة الباب، أربعيني، ممشوق القوام، بوجه طفولي مدوَّر، بشرة بيضاء مُشرَّبة بحُمْرَة، شعر أسود ناعم، وعينين متساءلتين، يرتدي قميصًا أبيض، وبنطلون بنفسجيًّا به لمْعَة خفيفة، بدا كشخص لم يلمس سكِّينًا طوال حياته.

قال: «في خدمتكِ شهرزاد»، صوته هادئ، وبه حِسّ طفوليّ، فتحَتْ «شهرزاد» يدها باتجاهي:

قالت: «ضيفنا يريد أن يسمع عزْفك، تقدَّم»، نظر إليَّ «العازف».

«مرحبًا بالضيف الكريم».

«شكرًا لك».

حَنَى «العازف» رأسه «لشهرزاد» وهو يمرُّ من أمامها، حَضَنَ القيثارة بطريقتها.

سألني: «ضيفنا الكريم يُفضِّل أن يسمع شيئًا محددًا؟».

«موسيقا «شهرزاد»، من فضلك».

مَرَّرَ «العازف» أصابعه الرقيقة على الأوتار، وبدأ العزف، ابتسمَ وهو ينقل عينيه بيني و«شهرزاد»، ثم نَسِيَنا في لحظة ما، وتماهى مع

عزفه، ينظر لأوتار القيثارة، يحضنها برقَّة، يُبعِد صدره عنها قليلًا، يُحَرِّك جسده في دوائر صغيرة، يلمس بأطراف أصابعه كل وتر، رأيت دموع «العازف»، وابتساماته، خشيتُ أن يتلاشى مع عزفه، لكنه، للحَظّ السعيد، ظَلَّ معنا.

عزَفَ «شهرزاد» كاملة، ظلَّتْ عيناه مُغلقتين للحظات، فتَحهما، رأيت فيهما دموعًا.

سألَ «شهرزاد» إنْ كانت ترغب أنْ يعزف شيئًا آخر، نظرَتْ إليَّ، شكرْتُها، وشَكَرْتُ «العازف»، مشى باتجاه الباب، حَنَى رأسه أمام «شهرزاد»، وغادر.

سألْتُها عمَّا حدث للسيف بعد أن توقفَ قَطْعُ الرؤوس.

قالت: «لا أعرف أين هو الآن، لكني رأيته في متحف ما أثناء تجوالي في حكايات جدَّتي ‹عشق زاد›، ستجد أسماء كل مَنْ قُطِعَتْ رؤوسِهن محفورة فيه».

قلت: «أعرف أني تأخَّرْتُ في السؤال عنها، أين جدَّتُك ‹عشق زاد›؟ هل يمكنني أن أراها، أو..».

ابتسمَتْ «شهرزاد» وأغلقَتْ عينيها لحظات، فتَحَتْهما.

قالت: «عشق زاد تتجوَّل في الحكايات منذ مدة طويلة».

يمكنني أن أُفكِّر هنا في احتمالات كثيرة.

مَرَّرْتُ عينيَّ على الكتب، ورقة «شهرزاد» المفتوحة على سطح المكتب، القيثارة داخل الضوء الأزرق، ثم «شهزراد» من جديد.

ابتسمَتْ وقالت: «ربما تشعر الآن ببعض الجوع؟»، شعرتُ بجوعي، وعلى أيَّة حال كنت لأرغب في تناول الطعام معها.

عدنا إلى «القاعة البيضاء»، أكلنا، مثلما طلَبْتُ: خبز، عسل، جُبْن، وفاكهة، قطَّعَتْ لي تفاحة، وفرَطَتْ في يدي حَبَّات عنب، وفي الخلفيَّة كان «العازف» يعزف «شهرزاد» بتنويعات مختلفة.

تحدَّثْنا في الحكايات، الأدب، الموسيقا، الحب، السفر، ومن وقت لآخر، كانت تقول أبياتًا من الشعر، أو تحكي حكاية.. تنهض أحيانًا وتُقَلِّد شخصيات حكاياتها.

أخبرتُها أني أتجوَّل في الزمن والوقت، ولا أعرف كيف يحدث هذا لي، أو أني أعرف.

قلت: «إنها الحكايات».

قالت: «نعم، الحكايات تفعل هذا، وأكثر»، صمتَتْ لحظة، قالت: «هل تعرف ما هي جُملتي المُفضَّلَة»، لم تكن تسأل، أكمَلَتْ: «قلبي بأمان ما دام في العالم حكايات».

قلت: «هل تُصدِّقين أني كتَبْتُ قصة عنوانها (قلبي بأمان ما دام في العالم حكايات)، تحكي عن فتاة يتكَسَّر قلبها بالحكايات

وينصلحُ بها، وتُرَدِّدُ الفتاة الجملةَ نفسها من وقت لآخر».

ابتسمَتْ «شهرزاد».

قالت: «هذه الجملة معروفة منذ أزمان، وكانت المُفَضَّلة أيضًا لدى جدَّتي (عشق زاد)، وفي كل وقت ستجد فتاة تكون جُمْلتها المُفَضَّلَة: قلبي بأمان ما دام في العالم حكايات».

دخلَتْ من النافذة نسمة هواء باردة، ورأيت بالخارج ذلك الضوء البنفسجي الذي يدلُّ على نهاية الليل، نظرْتُ إلى «شهرزاد»، تأمَّلْتُها لحظات.

قلت: «حان الوقت؟».

قالت: «سأعطيك هدية قبل أن تغادر، تعال معي».

خرجنا من «القاعة البيضاء»، مشينا في مَمَرّ مُلتوٍ مفروش بسجاد خفيف، توقفنا عند باب خشبي، محفور فيه رسم لشهرزاد، وهي واقفة على البساط السحري الطائر، ذراعاها مفتوحتان جانبًا، وتنظر إلى الأفق.

فتَحَتْ «شهرزاد» الباب، دخلنا، رأيت قاعة تتوزَّع فيها أبْسِطَة متراصَّة، فوق بعضها البعض، مختلفة الألوان والأحجام.

قالت: «كلها بُساط سحري، اخْتَرْ لك واحدًا»، مشيْتُ بين الأبْسِطَة، لها رائحة جديدة، ملمسها دافئ، ومرسوم فيها شخصيات

من «ألف ليلة وليلة»: «السندباد البحري» في سفينة شراعية كبيرة، «شهرزاد» وهي تحكي «الشهريار»، «شهرزاد» تعزف على القيثارة، الأربعون حرامي أمام المغارة، «السيَّاف» وبيده السيف، «العازف» يعزف القيثارة، كانا الشخص نفسه، ورأيت أبْسِطَة كبيرة بها رسومات، تحكي مقاطع من حكايات «ألف ليلة وليلة».

اخترْتُ بساطًا صغيرًا أزرق، مرسومًا فيه بخيوط برتقالية «علاء الدين والمصباح السحري»، طوَيْته تحت ذراعي وغادرنا القاعة، أغلقَتْ «شهرزاد» الباب.

قالت: «هناك شيء آخر»، انتقلَتْ إلى الباب المجاور، كان بلا مِقبض أو ثقب لمفتاح، تطلَّعَتْ إليه كأنها تنظر إلى شخصٍ حقيقي.

قالت: «افتح يا سمسم»، انفتحَ الباب، رأيت قاعة واسعة بها أكوام من الجواهر، تشكيلات من اللؤلؤ، الماس، والأحجار الكريمة، صناديق ملأى بنقود معدنيَّة، أطباق، طاولات، ملاعق، سكاكين، كئوس، حُلِي، وتيجان، كلها من الذهب والفضة.

قالت شهرزاد: «هذا جزء ممّا في مغارة علي بابا، املأ حقيبتك». فكَّرْتُ لحظة.

قلت:«سأكتفي بالبساط السحري»، دخَلْتُ الحجرة بخطوة واحدة كبيرة، جذَبْتُ الباب بيدي في محاولة مني لإغلاقه، لكنه لم

يتحرّك، تذكّرْتُ أنَّ له كلمة سِرّ، تراجعْتُ خطوتين.

قلت: «اقفل يا سمسم»، لم يهتم.

ضحِكَتْ «شهرزاد» وقالت:

«هذا السمسم لا يسمَع إلا لي وشهريار»، نظرَتْ إلى الباب، وأمرَتْه:

«اِقْفِل يا سمسم».

صحبَتْني إلى شرفة خلفيَّة بالقصر.

قالت: «حسنًا، كاتب متجوِّل، يمكنك هنا أن تركب البساط وتنطلق».

«كيف أتحَكَّم به؟».

«البساط سيعرف ما تريد منه بمجرَّد أن يخطر ببالك، يمكنك أيضًا أن تتحدث إليه أو تَرْبِتَ عليه وسيفهمك، وربما يختار لك أشياء ستحبها».

فرَدْتُ البساط على الأرض، نظرْتُ إليها.

«حسنًا شهرزاد، شكرًا لهذه الليلة من ألف ليلة».

«ستكتب عني؟».

«لن أُفَوِّت هذا، تريدين أن أكتب شيئًا محددًا؟».

«لا، فقط ما حدث بيننا»، وابتسمَتْ، تألَّقَتْ غمَّازة خدّها.

قالت: «أتمنَّى لك أن تصاحبكَ الحكايات»، تأمَّلْتُ عينيها.

قلت: «أتمنَّى أن يبقى قلبك بأمان».

طار بي البساط، كِدْتُ أسقط في البداية، لكني تمالَكْتُ نفسي سريعًا، ساعَدَني هو في ذلك، تجاوَزْتُ سور القصر، السماء بلون أزرق مائي، الوقت الوهمي الذي يسبق الصباح، كنت على ارتفاع منخفض، نظرْتُ إلى أسفل، وجدْتُ نفسي أطير فوق حكايات «ألف ليلة وليلة»، رأيت «علي بابا» يختبئ خلف شجرة، ويراقب الأربعين حرامي، وهم يقفون أمام باب المغارة بكنوزهم، رأيت «علاء الدين» ومعه مصباحه السحري، «مرجانة»، «زمردة»، «بدر البدور»، «معروف الإسكافي»، «سندباد الحَمَّال»، و«سندباد البحري»، رأيت القصر الذي كنت فيه مع «شهرزاد»، لكن في زمن آخر، دُرْتُ حوله، كانت هناك نافذة مفتوحة وستارة يلاعبها الهواء، اقترَبْت، رأيت «شهرزاد» و«شهريار» في سرير واسع، هو نصف مستلقٍ كما يليق بحالم، وهي جالسة إلى جواره تحكي له، رأتني «شهرزاد» وابتسمَتْ، ليس لأنها عرفَتْني، إنما مُجرَّد ابتسامة لعابرٍ أو متجوِّل، لا تعرف أني سأقابلها في مستقبلها، ونقضي معًا تلك الليلة، التي قضيناها معًا بالفعل منذ قليل، أو ربما عرفَتْ بها وقتما كانت تتجوَّل في حكايات جدَّتها «عِشق زاد».

ابتسمْتُ لها، وابتعَدْت.

المَشْي إلى المدرسة.

خرج بي البساط من حكايات «ألف ليلة وليلة»، رأيت شمسًا صباحيَّة، دافئة، ارتفَعْتُ بالبساط، وقفْتُ فوقه، فتَحْتُ ذراعيّ، تلفَّتُّ حولي، ناديت:

«عباس بن فرنااااس، أنا أطيبير، أين أنت؟»، سمِعْتُ خَفْق أجنحة يأتيني من جهات مختلفة، تلفَّتُّ حولي، ظهرَ «بن فرناس» قادمًا بمواجهتي وريشه يلمع، ابتسَمْتُ له، ابتسمَ لي، طار بمحاذاتي.

قلت: «أنا أطير».

قال: «هيا، لنلعب بعض ألعاب الطيران»، دار حول نفسه، فعَلْتُ مثله دون أن أسقط عن البساط، كأني ملتصق به، أو أنه يدور بأسرع مِمّا يُمكن للجاذبية الأرضيَّة أن تلمسني، نرتفع متجاورَيْن بشكل رأسي، أسمع غناء الريح في جناحيه، نهبط، ندور حول بعضنا بعضًا مثل طائرَين، نصنع أشكالاً هندسية، وأخرى عشوائية.

توقَّفْتُ عن الطيران عند لحظة ما، تأمَّلْتُ نفسي والبساط والسماء، تمنَّيْتُ لو استطعْتُ أن أحصل على نسخة منِّي لأتفرَّجُ عليَّ وأنا أطير.

سألني بن فرناس: «تَعِبْت، كاتب متجوِّل؟».

«فقط قلبي سيُجَنّ من الدهشة».

«لنسْقِه بعض الماء فيهدأ».

هبَطْتُ معه إلى نهر، توقف هو قُرْب سطحه ومَدَّ فمه مثل طائر وشَرِب، توقَّفْتُ بالبساط إلى جواره، مِلْتُ إلى النهر، وملأتُ يدي عِدَّة مرات.

قال: «تعال، سأُريكَ منظرًا جميلاً»، طِرْتُ معه، أشار بعينيه إلى طريق ترابي:

«هناك».

رأيت مجموعة من التلاميذ، ربما عشرين، أولادًا وبنات في زِيّ مدرسي، قمصان بيضاء للجميع، بنطلون أخضر للولد، وجيب للبنت، حقائبهم المدرسيَّة الخفيفة على ظهورهم، وسمِعْتُ ضحكاتهم، التفَتُّ إلى جواري، لم أجد «بن فرناس»، نقَلْتُ عينيَّ في السماء، لم أره.

«طِرْ يا بن فرناس».

هبَطْتُ إلى ارتفاع قريب من التلاميذ.

قلت لهم: «صباح الخير»، التفتوا إليَّ، ضحكوا.

قالوا: «صباح الخير، أنت البساط السحري؟».

اقتربْتُ أكثر، صرتُ بمستوى أكتافهم، جلَسْتُ على حافة البساط وقدماي تتدلّيان خارجه، اقتربوا مني، يُمرِّرون أيديهم على البساط، ويضحكون.

قلت: «هيا، ليركب كل واحد منكم معي قليلاً»، قفزَتْ فتاة إلى جواري، وضحِكَتْ، مرَّرَتْ يديها وعينيها على البساط، والرسم المنقوش فيه.

قالت: «علاء الدين والمصباح السحري»، نظرَتْ إليَّ، سألتني: «معك مصباح سحري؟»، ضحِكَتْ وزملاؤها، ضحكْتُ معهم.

قلت: «لا، فقط البساط».

نظرَتْ الفتاة إلى حقيبتي.

«والحقيبة؟».

«بها أوراق وأقلام».

«أنت ذاهب إلى المدرسة؟»، ضحكوا، ضحِكْتُ معهم، أرجحَتْ الفتاة قدميها قليلًا، نهضَتْ وحاولَت أن تقف فوق البساط، ارتجفَتْ، شجَّعَها زملاؤها، توازَنَتْ، بدأتْ تفتح ذراعيها، زملاؤها يترقبون، وأنا معهم، فتَحَتْ ذراعيها عن آخرهما، نظرَتْ إليهم وابتسمَتْ، هلَّلوا وصفَّقوا، وأنا معهم، جلسَتْ الفتاة لحظة على البساط ثم قفزَت إلى الأرض، ركب صبيٌّ بدلاً منها.

كان كل ولد أو بنت يركب البساط لمسافة قصيرة، يؤدي حركة أو حركتين، يُهَلِّل زملاؤه ويصفقون، وأنا معهم.

سألتُهم: «المدرسة بعيدة؟».

«نعم.. لا، نحب أن نمشي إليها».

سألني صبيّ: «قابَلْتَ علاء الدين والمصباح؟»، وضحِكوا، ضحِكْتُ معهم.

قلت: «ليس بعد»، ضحِكوا، ضحكْتُ معهم.

سألَتني فتاة: «وشهرزاد؟»، ضحِكوا، ضحِكْتُ معهم.

«هي من أعطتني البساط»، ضحِكوا، ضحكْتُ معهم.

مشوا فوق مَمَرّ بين حقول، وآخر يلتفُّ حول جبل، تقافزوا فوق قطعٍ من حجارة وسط نهر ضَحْل، وأنا بمحاذاتهم فوق البساط، رأيت قطعة خشبية مستطيلة تمرُّ مع الماء، مكتوبة فيها باللون الأخضر جُمْلة باللغة السواحيلي، ابتسمْتُ وقرأْتُها بصوت مسموع:

«Kitwana anependa Nyota»، «كيتوانا يُحب نيوتا».

كان التلاميذ يضحكون، ويتبادلون تعليقات طريفة، قِطَع حلوى، أوراقًا صغيرة ربما بها رسائل لبعضهم بعضًا، يشتركون في أغنية، يقرأ أحدهم حكاية، أو قصيدة.

وعندما ظَهَرَتْ المدرسة توقفْتُ بالبساط.

«الآن، أُوَدِّعكم، أصدقائي».

«تعال معنا إلى المدرسة، تعال»، أَمْسَكَ بعضهم بحافة البساط.

«لديَّ أشياء لا بُدّ أن أفعلها»، تمتموا بغضب طفولي، ثم ابتسموا، ابتسَمْتُ وأنا أنقل عينيَّ بينهم، نور الشمس يلمسهم فيزداد لمعانًا.

«إلى اللقاء أصدقائي، يوم دراسي سعيد».

«يوم سعيد لك، إلى اللقاء».

بقيتُ في مكاني أتفرَّج عليهم، التفتوا إليَّ بَعْد عِدَّة خطوات، هتفوا وهم يتقافزون:

«بَلِّغ السلام لشهرزاد، وعلاء الدين والمصباح، وعلي بابا والأربعين حرامي»، يضحكون، ابتسمْتُ ولوَّحْتُ لهم.

فكَّرْتُ وأنا أتابعهم، كيف لمنظر كهذا أن يختفي من الوجود، كنت أعرف أنه مهما تطوَّر العالم، سيبقى منظر جميل مثل هذا موجودًا في مكان ما، تلاميذ يذهبون معًا إلى مدارسهم على أقدامهم، لا شيء يُعَوِّضُ عنه أو يجعله أجمل، في هذه الرحلة يتعرَّفون إلى العالم، يلمسونه ويلمسهم، يشمُّونه ويشمُّهم، يعرف أسماءهم وملامحهم واحدًا واحدًا، ويعرفون ملامحه، وأسماء

مفرداته، تنشأ بينهم ذكريات لا تُنسى، قصص صداقة، وحب، كل شيء يَنْبُتُ في مثل هذه المشاهد، والمشاوير.

مَنْ قال إنهم يَتْعَبون؟ التلاميذ لا يَتعَبون أبدًا من المشي إلى المدرسة، الكبار يوهمونهم بذلك أحيانًا.

البنت السمكة.

ولأني متجوِّل، كان لا بد أن أترك البساط، دُرْتُ به دورة أخيرة في الهواء، هبطْتُ قريبًا من سطح الأرض، نزلْتُ عنه، مرَّرْتُ يدي عليه.

قلت له: «شكرًا لك، الآن يمكنكَ العودة إلى ‹شهرزاد›، أو افعَل ما تشاء».

دار البساط حولي، تمَسَّحَ بي، ضحكْتُ وربَّتُ عليه، طار وابتعد.

مشيْتُ في طريق تُرابيَّة، على أحد جانبيها مجرى مائي، وعلى الجانب الآخر صَفٌّ أشجار عالية، المسافات بينها ضيِّقة، أغصانها كثيفة، يتسلَّل من الجهة الأخرى نور طبيعي، يميل إلى البرتقالي الفاتح، ولا يأتيني أيّ صوت، حاولْتُ أن أرى ما خلف الأشجار، لم أستطع، رأيت جُملتَيْن محفورتَيْن في شجرتين متجاورتين، إحداهما باللغة الصينيَّة، قرأتُها بصوت مسموع:

"东 爱 秀"! «سيو تُحب دونج».

كانت الجملة الأخرى باللغة الألمانية، قرأتُها:

«Karla liebt Lukas»، «كارلا تُحب لوكاس».

دخلْتُ بجانبي بين الشجرتَين، عَبَرْتُ إلى الجهة الأخرى، وجدْتُني على رصيف من حجارة صغيرة ملوَّنة، وهناك شارع تعبره سيارات، وعلى الجهة الأخرى منه مبان بطراز حديث، عَرفْتُ أني انتقلْتُ إلى زمن جديد، الوقت بدايات الغروب، التفَتُّ خلفي إلى الأشجار، لم أرَ ما وراءها، ولا يمكنني الادِّعاء بأني أعرف، فقط نور طبيعي أبيض يتسلَّل من بين الأغصان.

عبَرْتُ إلى الجهة الأخرى من الشارع، صفٌّ من مقاهٍ، تتسلَّل منها موسيقا هادئة، أضواء خافتة، ورائحة البُنّ، بعض الطاولات مرصوصة على رصيف المقهى، انعطفْتُ مع الشارع، ما زالت المقاهي على الرصيف نفسه، رأيت شريطًا صغيرًا من ورق برتقالي يطير باتجاهي، أمسكْتُه، وجدْتُ جملة مكتوبة فيه بلون أبيض، كانت باللغة البرتغالية، ابتسَمْتُ، وقرأتُها بصوت مسموع:

«Fernando ama Patricia»، «فرناندو يُحب باتريشيا»، وأطلقْتُ الشريط في الهواء.

اعترضَتْ طريقي شابة قادمة من الجهة الأخرى للشارع، ترتدي قطعة الملابس التي يرتديها شخص ستُجرى له عملية ما: قميصًا أو أيًا كان، بلون أزرق سماوي شفاف، ينتهي عند منتصف ساقيها، رأيت ثدييها الصغيرين، وكيلوتها الذي بلون الليمون، ورائحته ربما، وفي قدميها كان خُفٌّ من فرو صناعي أخضر، لم تبْدُ كمجنونة، ربما هاربة، التقطَتْ أنفاسها، ابتسمَتْ وقالت:

«كيف حالُك؟».

كانت حقيقية، وبسيطة، كأنها تعرفني منذ سنوات، شعرْتُ أني أيضًا أعرفها.

ابتسمْتُ: «أنا بخير، وأنتِ؟».

«بخير»، قالت، وخطفَتْ نظرة إلى الجهة الأخرى من الشارع: «فقط ربما يُجرون لي عملية هذه الليلة»، أشاحت بيدها: «لا تهتم، هل يمكن أن أدعوك إلى فنجان قهوة؟»، وضعَتْ باطن إحدى يديها مفرودة فوق ظهر اليد الأخرى، ودفعتْهُما باتجاهي ببطء وهي تُحرِّك إبهامَيْها مثل زُعنفتَي سمكة.

قالت: «سمكة تَسْبَح»، بدَتْ حركة يديها بالفعل مثل سمكة تَسْبَح.

دخلنا المقهى.

جلسنا إلى طاولة تطلُّ على الشارع، وضعْتُ حقيبتي فوق مقعد بجواري، مَدَّت الفتاة يدها لتصافحني:

«أنا البنت السمكة».

أعجبني أن تصف نفسها بالسمكة، جميل، ونادر، صافَحْتُها وأنا أقول:

«اعتقدْتُ أنكِ البنت الهاربة من المستشفى، أنا مُتجوِّل».

«متجوِّل، امم، هناك احتمالات كثيرة حول هذا».

«فقط أريد أن أُحقِّق حلمًا قديمًا بأن أتجوَّل في العالم»، مرَّرْتُ عينيَّ على القطعة التي ترتديها.

«وأنتِ ما زِلْتِ الفتاة الهاربة من المستشفى».

ابتسمَتْ.

«أنتظر منذ أسبوعين أن يُجروا لي عميلة بالقلب»، نظرَتْ عَبْر النافذة إلى الجهة الأخرى: «لكني لا أطيق البقاء في مكان واحد، أخرج مرة كل يوم، وأخطف شخصًا من الشارع ليشرب معي شيئًا ما، هنا».

«هل تفعلين شيئًا عدا خطف الناس من الشوارع؟».

«أعمل مُتطوِّعة في الأعمال الخيرية، حول العالم»، صنَعَتْ بيديها حركة السمكة السابِحة: «أنا السمكة السابحة لا أطيق البقاء في مكان واحد».

جاء النادل.

سألَتني الفتاة: «ماذا تحب أن تشرب؟».

«قهوة سادة»، انصرف النادل.

سألتُها: «لن تشربي شيئًا؟».

«يعرف طلبي».

«حسنًا، ولماذا أنتِ البنت السمكة؟».

«أولًا هذا إحساسي الشخصي بنفسي، أنا أحب أسلوب السمكة، انسيابيتها، طبيعتها التلقائية، بريقها الخاص، طريقتها في اللعب، هدوءها، مرحها، حركاتها المفاجئة، أحيانًا تكون متوحِّدة، وأحيانًا أخرى اجتماعية».

كانت كلما قالت شيئًا عن السمكة، رأيته فيها على الفور.

قالت: «أحب سذاجتها اللطيفة، وذكاءها البريء».

رأيت سذاجتها وبراءتها، وتخيَّلْتُ سمكة تَسْبَح بداخلها، صمتَتْ تُفكِّر.

قلت: «السمكة لا تغرق ولا تذوب في الماء».

«وهي أيضًا تضيء».

رأيت ضوءها الداخلي.

عاد النادل بقهوتي، وللبنت السمكة بفنجان كبير تُغطِّيه رغوة برائحة البُنّ وجوز الهند.

سألَتْني: «صادفتَ شيئًا مميزًا خلال تجوالك؟».

«نعم، رأيت ما أدهشني، وأنتِ؟».

أومأتْ، رشفَتْ من فنجانها، لعَقَتْ شفتها العليا كلها بطرف لسانها، لتمسح خَطًّا أبيض.

قالت: «هل تعرف ما أكثر شيء أثَّرَ في؟»، صمَتَتْ لحظة، وهمَسَت: «الجمال»، سحَبَتْ نفسها لتكون على حافة المقعد، بدَتْ مُتحمسة وهي تقول: «مثلًا، أُحدِّثُك فقط عن الجمال البشري، وهو متاح لنا جميعًا لنراه، كل هذه الوجوه التي رأيتُها في رحلاتي التطوعيَّة، وكل الوجوه برأيي جميلة، هي فعلاً كذلك، هل يمكن لكل هذا الجمال أن تكون نهايته التراب؟ تراب وفقط؟».

قلت: «لو أنك تسأليني، فرأيي أنه لن يكون كذلك»، وقفَتْ في مكانها، انتفضَ ثدياها الصغيران، صاحت: «أنا متأكدة أنه ليس كذلك»، نظر إلينا بعض الموجودين، لم تهتم، أكمَلَتْ: «أنا

لا أقبل لنفسي أن أصير في النهاية مجرد حفنة من تراب، هل تقبلها لنفسك؟»، هزَزْتُ رأسي نفيًا، ورشفْتُ من قهوتي رشفة طويلة كي أطرد الفكرة بعيدًا، جلسَتْ وقالت:

«أثق أن المبدع الذي أبدع كل هذا الجمال لن يتخلَّى عن إبداعه، أنا لا أتحدَّث هنا عن فكرة دينيَّة، أو منطق، أو كلام عقلاني، أتحدَّث عن الجمال».

قلت: «بشكل شخصي، أنظر إلى كل تفصيلة في العالم على أنها جزء من عمل إبداعي كبير».

«صحيح، أنا أيضًا أراه هكذا بطريقة ما»، أشارت بإصبعها إلى عينيها: «لا أتصوَّر أن عينيَّ اللتَين رأيت بهما كل هذا الجمال في العالم تتحوَّلان ترابًا في النهاية، كأنهما لم تريا شيئًا»، وضَعَتْ يدها على قلبها: «وقلبي الذي امتلأ بقصص الحب للبشر، لا أتصوَّر أن يكون ترابًا خالدًا، هأ، كأنه لم يُحِب، فما بالك أيضًا بالجمال الذي رأيته، والبشر الذين أحببتهم؟».

قلت: «هناك أشياء لا أتصوَّر اختفاءها من العالم، وأعتقد أنه لا يكون عالمًا إلا بوجودها، وهناك أشخاص أحبهم، ماتوا، ولا أتصوَّر أنهم صاروا ترابًا للأبد، وأني لن أراهم ثانية»، مالت «البنت السمكة» ناحيتي.

قالت: «تري؟ هذا مُخبِط جدًّا، ولا معنى معه لأيّ جمال أو أمل، لا جدوى من العالم بالأساس، التراب؟ هأ، تراب؟ حتى إنه ليس من العدل»، وَقَفَتْ في مكانها، وضَعَتْ يديها حول خصرها، رأيتُ السمكةَ الغاضبة بداخلها، ابتسمْتُ وقلت لها:

«لو أن هذا يريحك قليلاً، فأنا أوافقك»، ظلَّتْ على حالها لحظات، جلَسَتْ، هدأَتْ سمَكَتُها.

قالت: «أُنظر إلى مَنْ حولنا، فقط نظرة بسيطة»، مرَّرْتُ عينيَّ على بعض الموجودين.

قالت: «أُنظر إلى المارَّة في الشارع»، مرَّرْتُ عينيَّ على المارَّة، أكملَتْ: «لاحظْتَ أن كل الوجوه تتكون بالأساس من أربعة عناصر رئيسية ، عينين، أذنين، أنف، وفم ، رغم ذلك بها كل هذا التنوُّع؟»، صمتَتْ لحظة، قالت: «الآن، تخيَّل كل الوجوه الموجودة في العالم، ووجوه مَنْ ماتوا، ومَنْ سيأتون في المستقبل»، استندَتْ بظهرها إلى المقعد: «تفَضَّل، أغلق عينيك وتخيَّل».

أغلقْتُ عينيّ، اندهشْتُ من عدد الوجوه التي رأيتها، أشكال وألوان وثقافات مختلفة، كنت أعرف أني لم أرَ أغلبها من قبل، كيف تسكنني، وأراها بهذه السهولة، ابتسَمْتُ وفتحْتُ عينيّ.

قالت البنت السمكة: «ترى؟ لا يمكنك إلا أن تبتسم وتتساءل عن هذا المبدع، وجماله، كيف أبدعَ كل هذا، فقط بأربعة عناصر

رئيسية»، صمتَتْ لحظة، قالت: «برأيك، هل تتصوَّر أنه سيدَمِّر إبداعه في النهاية، ويحوِّله إلى تراب، هاْ، أنا لا أقبل بتدميري، هل تقبل تدميرك؟».

نهضْتُ بطريقتها وقلت: «لا».

ابتسمَتْ.

«حسنًا، اطمئن، لن يحدث».

جلسْتُ على حافة المقعد.

نظرَت «البنت السمكة» عَبْر النافذة، وقالت كأنها تُحدثُ نفسها:

«هناك الكثير من الجمال لم أرَه، وكل إنسان، كل مخلوق، رأى ما لم يرَه غيره، هناك مَنْ رأوا قبلنا، ومَنْ سَيَروا بعدنا، وكل ما سنراه جميعًا ليس كل شيء»، صمتَتْ لحظة، قالت: «أفكر في جمال المُبدِع الذي أبدع كل هذا الجمال»، صمتَتْ مرة أخرى، لمحْتُ دموعًا في عينيها وهي تُكمل: «أجمل أمنياتي أن أرى مَنْ أبدعني»، تأمَّلتُها قليلًا، مدَدْتُ يدي وربتُّ يدها، التفتَتْ إليّ وابتسَمَت، ابتسمْتُ لها، سحَبَتْ نفسًا عميقًا، وقالت:

«أنا واثقة أنه لن يدمِّر إبداعه، مصيرنا ليس حفنة من تراب».

تطلَّعْنا معًا إلى الشارع، رأيت على الجانب الآخر «المهرِّج» الذي قابلتُه من قبل مع السيرك، كان يؤدي حركاته تلك، ويدعو

المارَّة، تطلَّعَ إلى المقهى كأنه يتوقَّع وجود أحد يعرفه، رآنا، نهضَت «البنت السمكة» في مكانها، وهي تقول: «المُهرِّج»، نهضْتُ أيضًا، ابتسمنا ولَوَّحْنا له، ابتسَمَ، ولَوَّح لنا، قال شيئًا ما، ودخلَ مع السيرك في شارع متقاطع.

جلسْتُ و«البنت السمكة»، تبادلنا نظرة جانبيَّة، ضحكنا ضحكة قصيرة، لم أسألها كيف عرفَتْ «المهرِّج»، ولم تسألني، قرَّبَتْ وجهها مِنّي، نظرَتْ في عيني، سألتني:

«تعجبك عينيَّ؟»، تأمَّلْتُهما لحظة، وابتسَمْت.

«نعم تعجباني».

«تبرَّعْتُ بهما لأيّ شخص يحتاجهما، في حال لو حدث لي شيء ما»، ربتَتْ قلبها: «كنت أريد أن أتبرَّع بقلبي أيضًا لولا أنه مريض قليلاً»، ضحِكَتْ ضحكة قصيرة: «سأرى، أعتقد أن به أجزاء تصلح لتكون قِطَع غيار».

قلت: «لن توقفك العملية عن أعمالك التطوعيَّة، صحيح؟».

«السمكة لا يوقفها شيء، أيّ شيء»، ابتسَمَتْ وتطلَّعَتْ إلى الشارع، تأمَّلْتُ وجهها البسيط، وجسدها الهشّ، التفتَتْ إليَّ.

قالت: «لن يُدَمِّرَ إبداعه، أعرف ذلك، الجمال سيبقى، ويدوم».

ظلَّت «البنت السمكة» تقف أثناء كلامها وتجلس، وأنا أراقب

السمكة بداخلها، كنت أفعل مثلها أحيانًا، أقف عند بعض الجُمَل، وأجلس، إنتقلَ الأمر إلى رُوَّاد المقهى حولنا، يقفون في أماكنهم عند كلمة أو جملة، ثم يجلسون، ونضحك.

عندما غرُبَتْ الشمس قلت لها:

«أعتقد أني سأتركِكِ الآن، أيتها السمكة».

ابتسمَتْ، مدَدْتُ لها يدي، وتصافَحْنا.

قلت: «أتمنى لكِ رؤية المزيد من الجمال».

قالت: «أتمنى لكَ أن تتجوَّل في السماء».

وضعَتْ باطن إحدى يديها مفرودة فوق ظهر اليد الأخرى، دفعَتْهُما باتجاهي ببطء، وهي تُحَرِّك إبهامَيْها مثل زعنفتَي سمكة، وقالت: «سمكة تسبح»، فعلْتُ مثلها، وقلت: «البنت السمكة».

غادَرْتُ المقهى، أمشي وأنا أنقل عينيَّ بين وجوه المارَّة، كأني أرى الوجه البشري لأول مرة، ابتسَمْتُ وقلت:

«صحيح يا «البنت السمكة»، الجمال يستحق أن يبقى، ويدوم».

مع متشرِّد.

دخلْتُ شارعًا جانبيًّا، الوقت ليل، أضواء خافتة، مبانٍ منخفضة، يتلوَّى الشارع بانسيابية، أمشي كأن نهرا خفيًّا يجرفني بخِفَّة، أعجبني

ذلك، وعرفتُ أني أدخل إلى مكان وزمن جديدَين، قفزتُ فوق بركة ماء صغيرة، رفرف طائر ليليّ قريبًا من رأسي، مَرَّ الشارع عَبْر ما يمكن أن يكون نافذة كبيرة، منخفضة، سمعْتُ صوت نهر قريب. استقام الشارع وانحدر بزاوية لطيفة، وصَلْتُ إلى نهايته، وجدْتُ سورًا خشبيًّا، ارتفاعه نصف متر، ومن مكاني رأيت النهر بالأسفل، له ضفَّة عريضة يُغطيها عشب، بها أشجارٌ متوسطة الطول، ومُثمرة فيما يبدو.

نزلْتُ أربع أو خمس درجات حجريَّة، واتجهْتُ إلى النهر، مشيْتُ بمحاذاة الشاطئ، نور القمر ينعكس على المياه الهادئة، أسمع بين لحظة وأخرى صوت سقوط إحدى ثمار الأشجار في الماء «بلُغغ»، أتخيَّل الثمرة، وهي تغرق للحظة ثم تطفو، تسقط بعض الثمار فوق العشب، وتصنع صوتًا مكتومًا «طَقْ»، وتبقى في مكانها، أو تتدحرج إلى النهر، ثمار ذهبية اللون، بحجم بيضة، لها رائحة حلوة خفيفة، وكان صوت سقوطها مُسَليًا.

رأيت على بُعْد خطوات رجلاً يمشي ببطء، ظهره لي، يرتدي چاكيت أزرق باهتًا، يُغطِّي رأسه بكاب متصل بالچاكيت، وبنطلون چينز خفيف، كان حافيًا، ويميل برأسه قليلاً ناحية النهر، كأنه يُنصِتُ الى صوت تساقط الثمار، مرَرْتُ بجواره.

قال: «اِسمَعْ، ستسقط ثمرة في النهر»، سمِعْتُ سقوط ثمرة «بلُغغ»، ضحِكَ الرجل ضحكة قصيرة.

قال: «أتظنها مصادفة؟»، تباطأتُ، وهو يمشي خلفي.

«الآن ثمرة أخرى، على الأرض ثم إلى النهر»، سقطَتْ ثمرة على الأرض «طَقْ»، تدحرَجَتْ إلى النهر «بلُغغ»، التفَتُّ إلى الرجل، وقلت دون أن أتوقف:

«الديكَ توقُّع جيِّد».

«هذا أكثر من مُجرَّد توقُّع».

«وماذا يكون؟».

«لماذا لا تقضي معي بعض الوقت لتعرف؟ أم أنك لا تريد أن تكون مع متشرِّد؟».

توقفْتُ واستدرْتُ إليه، توقَّفَ أمامي، لم أتبيَّن ملامحه في ظلال الأشجار، والكاب الذي يغطي رأسه، فقط رأيت عينيه، واسعتَين، يلمع فيهما ماء النهر ونور القمر، تلمع روحه أيضًا.

قلت: «أعتبر نفسي متشردًا بطريقة ما»، مرَّرَ عينيه عليَّ دون أن يزعجني.

قال: «لكن مظهرك لا يدلّ على أنك متشرِّد كفاية».

«امنحني بعض الوقت».

«ربما يساعدك أن تبقى معي قليلًا».

تأمَّلْتُ لمْعَة عينيه، وسمِعْتُ سقوط ثمرة في النهر.

«حسنًا، أنا معك».

نظر المتشرِّد بزاوية إلى السماء وابتَسَم، ثم نظر إليَّ وأزاح غطاء رأسه، انكشفَ وجهه، سقطَتْ على جبينه بعض خصلات شعره الرمادي، قدَّرْتُ أنه في السبعين من عمره.

سألني: «هل رأيتَ العصافير يومًا وهي نائمة؟».

كنت أعرف أني رأيتها نائمة أكثر من مرة، ولكني لا أذكر مشهدًا مُحددًا.

«أعتقد أني رأيتها، هذا مشهد لا بد أني مرَرْتُ به».

«ما رأيك أن نراها معًا؟ هذا مشهد أحب أن أراه، العصافير وهي نائمة»، تطلَّعَ إلى الأشجار، قال: «لكنك ستزعجها بطريقة صعودك العاديَّة للشجرة».

قلت: «هل هناك طريقة خاصة؟».

«نعم، كأنك غصن، كأنك أنت الشجرة، تعال معي».

صعدنا الدرجات الحجريَّة إلى الشارع، وصلنا إلى تقاطع، تتفرَّع منه أربعة شوارع، توقف المتشرِّد ونقَلَ عينيه بينها، كأنما يبحث عن شيء ما، أمسك بيدي.

قال: «اِحْمِ عينيكَ من الشمس»، نظرْتُ حولي لأتأكَّدَ أن الوقت ليل، مشي بي خطوتين، وانحرَفَ فجأة، صدَمَني نور الشمس، غطَّيتُ عينيَّ بيدي الحُرَّة، شعرْتُ بالنور هادئًا، إما أنه الشروق أو الغروب، رفَعْتُ يدي عن عينيّ، رأيت مجموعة كبيرة من أشجار، تندفع منها أسراب عصافير إلى السماء «ڤوووو، ڤوووو، ڤوووو»، إنه الشروق، وتلك الدُّفعات الصَّباحيَّة من العصافير، العشرات منها، أُحِبُّ هذا المنظر، وهذا الصوت «ڤوووو، ڤوووو»، تعجَّبْتُ مثلما كنت أتعجَّبُ في كل مرة أرى فيها العصافير وهي تندفع بهذه الأعداد، دون أن تصطدم ببعضها، وكيف تخرج كل صباح بجناحَيْن فارغَين، وتكون واثقة أنها ستعود، ليسَتْ فقط ممتلئة البطون، وإنما أيضًا معها طعام أطفالها، أفكر دومًا في مثل هذه التفاصيل عن العالم، حتى وإنْ كانت لديَّ إجابات عن بعضها، تظلُّ كلها مُدْهِشَة لي، ومثيرة للتعَجُّب.

غادرَت العصافيرُ الأشجار، يمكنني أن أتوقَّع وجود صغارها وبيضها في الأعشاش.

قال لي المتشرِّد: «اِخلع قميصك وحذاءك واترك حقيبتك، لتتسلَّق الشجرة»، خلعَ هو الچاكيت الأزرق، وتي- شيرت أخضر واسعًا، كانا باهتين ونظيفَين.

يميل جسده إلى النحافة، وبه خطوط لعضلات صغيرة، ومتماسكة، اتجه إلى شجرة، خلَعْتُ قميصي، وحذائي، وضَعْتُ

حقيبتي بجوارهما، ولحِقتُ به، تطلّعَ إلى الشجرة، مرَّرَ يديه على جذعها، ابتسمَ لها.

قال: «أهلاً، كيف حالكِ؟»، اهتزَّتْ أوراق الشجرة.

قدَّمَني لها: «صديق جديد».

حنَيْتُ رأسي للشجرة، وقلت: «مرحبًا».

قال لها المتشرِّد: «أتسمحين؟»، وربَّتَ عليها، نظر إليَّ.

«قبل أن تتسلقها، تخيَّلْ نفسكَ أحد أغصانها».

نظرَ بزاوية إلى السماء وابتسم، أَدخَلَ أصابع يديه في خطوط جسد الشجرة، وصَعَدَ، عضلاته الصغيرة تتمدَّد وتنقبض، يمرُّ بين الغصون دون صوت، صعَدْتُ خلفه، نظَرَ إليَّ وهمَسَ:

«لا تنسَ، أنت غصن في الشجرة».

همَسْتُ لنفسي: «أنا غصن في الشجرة، غصن في الشجرة».

يقفز المتشرِّد من غصن إلى آخر دفعة واحدة، أو يتمدَّد بين الأغصان، كأنه ينتقل عضلة بعد أخرى، وعَصَبًا بعد آخر.

قال لي: «تنفَّس بهدوء، اُضْبُط أنفاسك مع أنفاس الشجرة»، انزلَقَتْ إحدى قدميّ، عاتَبَني: «أنت تزعجها»، ربَّتُّ الشجرة واعتذَرْتُ لها.

توقَّفتُ أتأمّل مروره الرائع، كأنه هواء أو أخَفّ، هو نفسه الشجرة، تحرَّكت، صنعتُ ضجيجًا بين الأوراق، التفتَ إليَّ:

«تذكَّرْ، أنت هواء يَمُرّ».

«لكنك أخَفُّ حتى من الهواء».

قال: «الآن أنا شجرة».

أمضَيْنا النهار بين الأشجار، نتسلَّقُها أحيانًا، هو مثل غصن يتمدَّدُ فيها، وأنا بَشَريٌّ جدًّا، جعلني أمضغ بعض أوراق الأشجار وأبتلع عصارتها، جرحني جرحًا صغيرًا في كتفي، وسكَبَ فيه بعض العصارة، سقَيْتُ صفًّا طويلًا من الأشجار بماء النهر، نقلْتُ الماء إليهنَّ بكَفَّيّ، رغم أنهن لم يكُنَّ في حاجة لأفعل ذلك، إذ يمكنهن الوصول إلى الماء بسهولة.

«تعبيرًا عن محبتك لهُنّ»، قال لي المتشرِّد.

كان من وقت لآخر ينظر تلك النظرة إلى السماء ويبتسم، واضحٌ أنها ليست مجرد عادة، أو حركة لا إرادية، هو يقصد النظرة، والابتسامة، سأسأله عن ذلك في وقت مناسب.

عند الغروب، عادت العصافير إلى الأشجار، ارتدينا ملابسنا، عَلَّقْتُ حقيبتي في كتفي، نظر المتشرِّد إلى الشمس البرتقالية، التي كادت تلامس سطح النهر.

قال: «بسرعة إلى القارب، الغروب».

مشيتُ معه على شاطئ النهر، رأيت بعد مسافة قصيرة قاربًا بمجدافين، مربوطًا بحبل إلى شجرة، نزلنا إليه.

سألْتُه: «قاربَك؟».

«قارب حُرّ، ليس لأحد»، جدَّفَ باتجاه الشمس.

وصلنا إلى مساحة من النهر يلمع فيها النور البرتقالي، شعرْتُ أننا نقترب من الشمس بشكل حقيقي، دفئًا وليس احتراقًا، وعندما لامَسَتْ بقوسها السفلي سطح النهر، توقف القارب، كانت الشمس تغطي الأفق، شعُرْتُ أنها على بُعْد خطوات، ويمكنني أن ألمسها، وقفتُ في مكاني أتطلَّعُ إليها، رأيت أحشاءها، هي أيضًا رأت أحشائي، يمكنني الشعور بذلك.

«كم مرة رأيت الغروب في حياتك؟»، سألني المتشرِّد.

كنتُ أتعَمَّد رؤية الغروب من وقت لآخر، رأيته كثيرًا، لكن ليس بهذه الطريقة، عندما سألَني شَعُرْتُ أني أراه للمرة الأولى، لم أكن حتى متأكدًا إنْ كنت رأيته منْ قبل، دَفَأتْ الشمس كل نقطة في روحي، كانت تذوب في النهر على مهل، وتذوب بداخلي أنا، حتى تلاشَتْ في النهر، وبداخلي أنا.

استدار المتشرِّد بالقارب، جدَّف بقوة، هبطنا مع شلاّل صغير، عبَرْنا أسفل جسر من خشب وحبال، وصلنا إلى ممَرّ ضيِّق على

جانبيه أشجار تغلق الطريق بأغصانها.

«اِستعِدّ» قال المتشرِّد، ومرَّ بالقارب بين الأغصان، رأيت الشروق بمواجهتي، على بُعْد خطوات، شمس فضيَّة ناعمة تصعد من النهر، كأنها تتشكَّلُ منه.

رأيت الشروق مرات كثيرة، لكن ليس بهذه الطريقة، ولا بهذا القُرْب، شعرتُ بالشمس تشرق بداخلي، وفي عينيّ، كأني أرى الشروق للمرة الأولى، رأيته كاملاً، ملأتْ الشمسُ الأفق، وشعرتُ بها تلمس روحي، قطرة بعد قطرة.

لم أتكلَّم أثناء عودتنا، انتبَهْتُ والمتشرِّد يربط القارب إلى الشجرة، خرجنا إلى الشارع، الوقت ليل.

قال: «سأرِيكَ شيئًا يَخُصّ المتشرِّدين وحدهم».

مشي بي باتجاه حائط حتى كدنا نصطدم به، لم أتوقف، تركْتُ نفسي له، انحرَف بي إلى شارع لم يكن موجودًا منذ لحظة، شعُرْتُ أن الهواء قد تَغيَّر، ما زلنا داخل الليل، مقاهٍ وبيوتٍ عادية، لكن ثمَّة شيئًا مختلفًا، رأيت في عمق الشارع ما بدا أنه مزيج غير متساوٍ من الليل والنهار، كأنَّ معك كأسًا شفافة، ملأتَ ثلاثة أرباعها بالليل، ورُبْعَها بالنهار، وقلَّبْتهما معًا، مشينا باتجاه الكأس، كانت النسبة بداخلها تتغَيَّر لصالح النهار، حتى صار ثلاثة أرباعها نهارًا، ورُبْعَها ليلًا، بعدها وجدْتُ نفسي داخل نهار كامل.

قال المتشرِّد: «المتشرِّدون يعرفون شوارع سرِيَّة، ينتقلون خلالها من الليل إلى النهار».

قلت: «أعتقد أنكم تُفضِّلون البقاء داخل الليل».

«هذا صحيح، ويستطيع أيّ متشرِّد أن يختبئ داخل الليل لعدَّة أيام، ولكننا نحب النهار أيضًا، ونخرج إليه من وقت لآخر».

تطلَّعَ حوله إلى نهايات الشوارع، تلك النقاط الوهميَّة التي تلامس السماءُ فيها الأرض، كنا وَسَطَ عِدَّة تقاطعات، السماء صافية، والشوارع خالية تقريبًا، أشار إلى نهاية بعيدة:

«هناك».

مشَيْنا باتجاهها، مرَرْنا وسط سِرْب حمام يلتقط حَبًّا من الأرض، صادفْنا أولادًا وبنات يلعبون إحدى الألعاب القديمة.

كنا نقترب من نقطة وهميَّة، تلتقي عندها السماءُ بالشارع، ومن المُفْتَرَض أن تنتقل هذه النقطة إلى مسافة أبْعَد، لكنها ظلَّتْ في مكانها، نظرْتُ إلى المتشرِّد، اِبتسمَ.

قال: «كنتَ تظنها وهميَّة، إنها حقيقية».

وصلنا إليها، رأيتُ السماء تلامس الأرض، مرَّرْتُ يدي عليهما، وضعْتُها على مساحة يتماسّان عندها.

قلتُ: «إنها حقيقية».

مرَّرَ المتشرِّد يده على الأرض والسماء.

«نعم، حقيقية».

«يا للجمال».

لا أعرف كَمْ مرَّ من الوقت قبل أن سمِعْتُ المتشرِّد يقول:

«هل انتهينا هنا؟»، نظرْتُ إليه، ابتسمَ: «لدينا أشياء أخرى لنراها».

دخَلَ المتشرِّد إلى نقطة الالتقاء، دخَلْت، صعَدْتُ إلى السماء بخطوة واحدة، مشينا في شوارع ملوَّنة، والسحاب يَنبَح حولنا.

قال المتشرِّد: «هناك نقاط تلتقي فيها السماء بالأرض، أنا أعرف خمسًا منها، غيري يعرف أكثر، أو أقلّ، أعرف رجلًا اسمه «الرجل الشارع»، ليلة يكون رجلًا وليلة يكون شارعًا، يعرف سبع نقاط التقاء».

قلت: «أتوقَّع أن هذه النقاط تكشف عن نفسها لأشخاص تختارهم».

«وهناك نقاط لا يُكْشَف عنها، ولا يعرفها أحد غير السماء والأرض».

«هل مسموح لأحد أن يكشف لغيره عن النقاط التي يعرفها؟».

«نعم، النقاط تَثِقُ بمن تختارهم للتعرُّف إليها».

نزَلْنا إلى الأرض من نقطة التقاء أخرى لها مع السماء، قدَّرتُ أن الوقت منتصف النهار، كنا قريبَيْن من غابة صغيرة.

«إلى قِشْر البيض»، قال المتشرِّد.

دخلنا الغابة، أشجارها عالية، وبها ممرَّات كثيرة، من الواضح أن «المتشرِّد» يعرفها جيدًا، وصلنا إلى مَمَرّ من قِشْر البيض يمتد لعدَّة أمتار، يهتز القِشْر بخِفَّة مع الهواء ويصنع خشخشة رقيقة.

قال المتشرِّد: «لِمَ لا تُجرِّب المشي فوق هذا القِشر، وتحاول ألا تكسره؟».

«بهذه السهولة؟».

«راقِبْني»، رفَعَ قدمه الحافية وعَلَّقها في الهواء فوق القِشر، أغلَقَ عينيه، أنزلَ قدمه، لم تهتز قشرة واحدة، نقَلَ المتشرِّد قدمه الأخرى وبدأ يمشي، خطوتَين بحذر، ثم بشكلٍ طبيعي، حتى وصل إلى الجهة الأخرى.

قال: «والآن جَرِّب».

قلت: «سأهشِّمه لك».

عاد فوق القِشْر دون أن يكسر منه شيئًا، توقَّفَ بجواري.

قال: «أَغْلِقْ عينيك وتخيَّلْ أنك هواء».

«هذا كل شيء؟».

«نعم، مؤقتًا».

تركْتُ حقيبتي على الأرض، خلعْتُ حذائي، أغلَقْتُ عينيّ، وتخيّلتُ أني هواء، رفعْتُ إحدى قدميّ، وضعْتُها فوق القِشر، سمِعْتُ صوت تهشُّمِه.

قلت: «هذه فقط البداية».

«اِستمِرّ».

«حسنًا، إنه قِشرُك»، وهشَّمْتُ كل قشرة مسكينة لمَسْتُها.

قال المتشرِّد: «كنتَ تتوقَّع أن تمشي فوق قشر البيض من المحاولة الأولى، ولا تُهَشِّم قلبي؟»، نظرَ بزاوية إلى السماء وابتسم.

عدنا إلى المكان الذي قابَلْتُه فيه عند النهر، الوقت ليل، جلسنا متجاورَين، ننصِتُ إلى الثمار وهي تتساقط، ومن وقت لآخر يقول المتشرِّد «ثمرة إلى النهر»، فتسقط ثمرة «بلُغغ»، «ثمرة إلى الأرض»، فتسقط ثمرة «طَقْ».

قال لي: «أَغْلِق عينيك وانصِتْ إلى الأشجار، أَفسِح الطريق بينك وبينها».

أغلَقْتُ عيني، أَنصَتُّ إلى الأشجار، حاولْتُ أن أزيح كل شيء بيني وبينها.

قال: «حاول أن تسمَع نبضَ الثمرة قبل أن تسقط، لا بد أنَّ شيئًا خاصًا يحدث لها كي تسقط، حاول أن تسمعه، أو تشعر به».

حاوَلْتُ أن أسمع نبض الثمار، وأصلُ إلى ذلك الشيء الخاص فيها، ولكنها كانت تسقط دون أن أنتبه إليها.

بعد عِدَّة ساعات، استطعْتُ أن أُخْلِي جزءًا من الطريق بيني وبين الأشجار، شمَمْتُ رائحة خاصة للثمار قبل سقوطها، أعتقد أنها رائحة اكتمال خَلْقِها، «بلُغغ»، «طَقْ».

عند منتصف الليل، طلب مني المتشرِّد أن أقف فوق العشب بمواجهة النهر، وأخلَع ملابسي كلها.

«لماذا؟».

«الآن، أريدك عاريًا».

كان يقف على بُعْد خطوات، رأيته يخلع الجاكيت، نظر إلى بعد أن خلع التي- شيرت الأخضر، خلَعْتُ قميصي، بنطالي، واللباس الداخلي، نظرْتُ إلى المتشرِّد، كان عاريًا، ضوء القمر يكشف لي جانبًا من جسده مع ظلال خفيفة، شعرْتُ بضوء القمر على جسدي.

قال المتشرِّد: «اِفْعَل مثلما أفْعَل».

استلقى بظهره على العشب، فعلْتُ مثله.

«انسَ نفسك، واشْعُر بالأرض».

«أفهمُك».

فعَلْتُ هذا مراتٍ من قبل، لكنني لم أكن عاريًا، شعرْتُ بزَغَبُ الأرض، تسرَّبْتُ منه إليها، بدأتْ أصابعها تمشي على جسدي، نظرْتُ إلى القمر، سكَبَ بعض نوره في عينيّ، في فمي، وفي روحي، بارد، وغامض، حلمٌ يغسل جسدي، وأحشائي، أسمَعُ صوت سقوط الثمار، ورقَّة زعانف الأسماك، لمَحْتُ المتشرِّد يستلقي على بطنه، فعَلْتُ مثله، أرحْتُ جانب وجهي إلى الأرض، يتقلَّبُ المتشرِّد، أتقلَّبُ معه، استلقَيْتُ على ظهري ثانيةً، سكَنْتُ تمامًا، كأني أُخلَق من جديد، أشعر بكل قطعة يتم تشكيلها فيَّ حتى الانتهاء منها، خُلِقْتُ تحت عينيَّ، ومشاعري.

كلَّمَتْني الأرض، وفهِمْتُها بقلبي.

في الصباح، بعد أن غادَرَت العصافير أعشاشها، تسلَّقْتُ الأشجار مع المتشرِّد لعِدَّة ساعات، لم أُزعجها كثيرًا، ورأيته ينظر إلى السماء ويبتسم.

ذهبنا إلى مَمَرّ قِشْر البيض، كان سليمًا كأني لم أُهَشِّم شيئًا منه في المرة السابقة، ضحكَ المتشرِّد، وأنا أُهشِّمه له من جديد.

قال: «لا تَمْشِ بجسدك، امشِ بروحك، الروح أرقُّ من النور، أعلى من الطيران، يمكنك أن تمُرَّ بها خلال العالم، ويمكن للعالم

أن يمُرَّ خلالها دون أن يخدش أحدكما صاحبه»، ابتسَمَ: «ودون أن تُهشِّمَ قِشر البيض».

ارتديتُ روحي كاملة، علَّقتُ إحدى قدميَّ في الهواء فوق القِشر، شعُرْتُ أني أستطيع أن أفعلها، وضعْتُ قدمي، سمعْتُ تهشُّم قِشر البيض، لكن ليس بالقوة التي كانت في المرات السابقة.

نزلنا بالقارب إلى النهر، وصلنا إلى خَطّ التقائه بالبحر، دَلَّني عليه المتشرِّد، كان خَطًّا مُتعرِّجًا، عبارة عن رغوة خفيفة بلون أزرق فضي، ملأ يديه منه، فعَلْتُ مثله، رأيت نسخة مُصغَّرَة من الخَطّ الأزرق الفضيّ تَقْسِم المياه في يدي إلى نصفَيْن.

قال المتشرِّد: «تذوَّقْها في فمك قبل أن تبتلعها».

ناوَلْتُ حفنة الماء إلى فمي، شعرْتُ بالطعم العَذْب منفصلاً عن المالح، كانا متساويَيْن، مزجْتُ الماء في فمي، ظَلَّ الطَّعمان منفصلَيْن، ابتلعتهما، شعرْتُ داخلي بخطَّيْن متوازيَيْن، أحدهما عَذْب، والآخر مالح، نهر وبحر.

ابتعدنا عن الخَطّ الأزرق الفضيّ، تجوَّلَ المتشرِّد بالقارب، وهو يتطلَّع إلى النقاط الوهميَّة التي يلتقي فيها النهر بالسماء، ترك المجدافين، ووقف في مكانه يتأمَّلُ إحداها.

«هناك»، قال المتشرِّد، جدَّف باتجاه النقطة، توقَّعْتُ أنها إحدى النقاط الحقيقية، التي تلتقي فيها السماء بالنهر.

وصلنا إليها، رأيت السماء تلامس النهر، مَرَّرْتُ يدي عليهما.

«يا للجمال».

أخذتُ قطعة صغيرة من السحاب، غَمَسْتُها في النهر، وشرِبْتُها؟ أكلتها؟ لا أعرف، صعدنا بالقارب إلى السماء، يُجَدِّف المتشرِّد، فيتناثر حولنا رذاذ سحاب.

قال: «النهر والبحر لهما نقاط التقاء مع السماء، أعرف امرأة تعيش في البحر والمدن الساحلية، اسمها ‹المرأة القارب›، هي قارب وامرأة في الوقت نفسه، تعرف سِتَّ نقاط يلتقي فيها البحر بالسماء».

يمكنني أنْ أتوقَّع نقاطًا لا يعرفها غير السماء والبحر، والسماء والنهر.

نزلنا إلى النهر من نقطة تماسّ أخرى له مع السماء، مالت الشمس إلى الغروب، أسراب الطيور تعود إلى أعشاشها، أو تدور مرة أخيرة قبل العودة، توقَّفَ المتشرِّد بالقارب، نظر إلى سرب عصافير على ارتفاع قريب.

قال: «هل جرَّبْتَ أن تَعُدَّ أسراب الطيور؟».

قلت: «أفعل هذا أحيانًا، لكني لا أنجح».

تتبَّع بعينيه سِرْبًا.

«هذا السِّرْب به 15 طائرًا».

«كيف تكون متأكدًا؟».

«لا أحب أن أقول إني متأكد، لكنهم 15 طائرًا»، أشار بإصبعه، وهو يقول:

«اُنظر، هناك طائر في مقدمة السِّرب، لا بُدّ لكل سرب من قائد، عليك أن تجده، ويكون هو النقطة التي تبدأ منها العَدّ».

«وجدْتُه».

«اُنْقُل عينيك بهدوء بين أفراد السِّرْب، لا تتسرَّع ولا تكن بطيئًا، في أغلب المرات سيكون السِّرْب رقمًا فرديًا».

حاوَلْتُ أن أَعُدَّ السِّرْب، ارتبَكْتُ عند الطائر السابع.

قال المتشرِّد: «تخيَّل أنك تطير معهم، كُنْ طائرًا».

ابتَسَمْتُ، وقلت: «أنا طائر، أنا طائر»، ابتعدَ السِّرْب، نظرْتُ إلى المتشرِّد: «هرب السرب بمجرد أن قلْتُ أنا طائر»، ظَلَّ يراقب العصافير حتى اختفَتْ.

قال: «اعتقدْتَ أنك ستطير مع الطيور من المرة الأولى، دون أن تزعجها وتُهشِّم قلبي؟»، نظر إلى السماء وابتسَم.

عند الغروب، ترك المتشرِّدُ المجدافَين، مشى القارب مع تيار النهر الهادئ.

قال: «اسمَع.. الأسماك»، أنصَتُّ، لم أسمع شيئًا.

«تخيَّل نفسك سمكة».

قلت: «أنا سمكة، أنا سمكة»، ابتسَمْت: «لو أن البنت السمكة هنا لسمِعَتْ كل كلمة يقولها السمك».

قال: «هذا صحيح».

«تعرفها؟».

«تناوَلْتُ معها قهوة في المقهى نفسه، ورأيت سمكة تسبح بداخلها»، وضَعَ باطن إحدى يديه مفرودة فوق ظهر اليد الأخرى، ودفعَهُما باتجاهي ببطء، وهو يُحَرِّك إبهامَيْه مثل زعنفتَي سمكة، فَعَلْتُ مثله، ودفعْتُ يديّ باتجاه يديه.

قلنا معًا: «سمكة تسبح».

تجمَّعَتْ حولنا أسماك ملوَّنة، نظر إليها المتشرِّد، بدا كأنه يبادلها الحديث، أنصَتُّ إلى الأسماك، أَخْلَيْتُ الطريق بيني وبينها، «أنا الآن سمكة»، أعتقد أني سمِعْتُ للحظة واحدة صوت سمكة، فقط لحظة واحدة، سمكة واحدة، لكني لم أكن متأكدًا.

تكرَّرَ الأمر عِدَّة مرات: نتَسَلَّق الأشجار، نمشي في الشوارع، ننتقل إلى السماء، نتأمَّل الشروق والغروب، نعُدُّ أسراب الطيور، نُنصِتُ إلى الأسماك وتساقط الثمار، نستلقي تحت ضوء القمر،

يمشي هو فوق قِشر البيض، وأهشّمه أنا له، ومن وقت لآخر أراه ينظر إلى السماء ويبتسم.

كان ينتقل بي بسهولة من الليل إلى النهار، من الشروق إلى الغروب، والعكس، شعُرْتُ أني قضيتُ معه أسابيع، شهورًا، سنوات، لا يمكنني أن أعرف.

في إحدى المرات استطَعْتُ أن أتسلَّق شجرة دون أن أُزعجها، وعندها استحقَقْتُ أن أرى العصافير وهي نائمة، كان المنظر بسيطًا: عُشٌّ من القَشّ يتسلَّلُ إليه نور القمر، وعصفورة مع أطفالها الثلاثة، شعرْتُ أني لأول مرة أرى العصافير وهي نائمة.

استطَعْتُ أن أتنبَّأ بلحظة سقوط الثمار، أقول «ثمرة إلى النهر»، «بلُغغ»، «ثمرة إلى الأرض»، «طَقْ»، مشَيْتُ فوق قِشْر البيض خطوتَين دون أن أكسره، وفي الثالثة شعرْتُ به يتهشَّم تحت قدميّ، نجَحْتُ في عَدّ سِرْب طيور بطريقة صحيحة، كانوا 17 عصفورًا، سمِعْتُ همهمات الأسماك لكني لم أفهمها، وعندما رآني «المتشرِّد» أتطلَّعُ إلى النقاط التي تتقابل فيها الأرض والسماء، قال لي:

«تذكَّر أن نقاط الالتقاء هي مَنْ تكشف عن نفسها لأشخاص تختارهم، ولا بد أن تكون بمفردك وقتها».

طلبَ مني أن نتسابق في الوصول إلى عُشّ على غصن مرتفع، وقفنا متقابلَيْن حول الشجرة، صعدنا معًا، كنت أنقلُ عينيَّ بينه وبين

العُشّ، وعند لحظة ما لم أرَ المتشرِّد، توقَّعْتُ أن يكون قد سبقني، لكني لم أره هناك، نظرْتُ حولي، لم يكن موجودًا، واصلْتُ صعودي باتجاه العُشّ، اقترَبْت، فكَّرْتُ أن المتشرِّد ربما يكون مختبئًا خلف إحدى أوراق الشجرة، أو غصن ما، وسيظهر فجأة قبل أن أصل، اقترَبْتُ أكثر، لا يفصلني عن العُشّ غير ذراع واحدة، هل أسبقه؟ لا يمكنه الآن أن يسبقني، وصلْت، تلفَّتُّ حولي، لا أثرَ له، قلت: «تأخَّرْتَ أيها العجوز»، لم أسمع صوته، ولم أرَه، نظرْتُ داخل العُشّ، رأيت ثلاث عصافير صغيرة نائمة، وإلي جوارهم كان المتشرِّد جالسًا يبتسم لي.

في مرة أخرى، رأيته وهو يُطعِمُ صغار العصافير، كان يرفرف في الهواء قريبًا من أحد الأعشاش، يَمُدُّ فمه إلى الصغار، فيمدُّون إليه أعناقهم وأفواههم مفتوحة، ليضع الحَبَّ بداخلها، هل كان يرفرف بجناحَين أم أنهما ذراعاه؟ لم أتأكَّد، ولم أسأله.

قال لي: «هناك دائمًا سِرٌّ أعلى، ووصولٌ أعلى، لا تتوقف».

صحبني إلى ميدان كبير مليء بالناس.

قال: «تأمَّل وجوههم، لا تتعجَّلْ».

تأمَّلْتُهم، كبارًا، شبابًا، أطفالًا، بعضهم حزين، بعضهم سعيد، هذا مهتم، ذلك غير مُبَال، طفلًا يضحك، امرأة ترتب شعرها، رجلًا

يتحدَّث إلى نفسه، هذا يبدو فقيرًا، وذاك يبدو غنيًّا، شابة جميلة، شابًّا مُتحمِّسًا، وجوهًا، وحيَوَات كثيرة تمُرُّ أمامي.

نظرْتُ إلى «المتشرِّد»: لم يُحوِّل عينيه عنهم.

قال: «كل هؤلاء سيموتون، يومًا ما»، التفَتَ إليّ: «وأنا، وأنت، سنموت».

شعرْتُ أنَّ كل شيء بسيط، سَهْل، وابتَسَمْتُ.

مشَيْنا في شارع تتفرَّع منه عِدَّة شوارع، كنت أعرف أنها الدقائق الأخيرة لي معه.

سألْتُه: «كيف يمكنك أن تكون كل شيء بهذه السهولة؟ أنت طائر، سمكة، شجرة، هواء، وربما أشياء أخرى لا أعرفها».

مرَّرَ المتشرِّد عينيه على العالم حولنا.

قال: «أنا أخٌ للطائر، السمكة، الشجرة، الهواء، وأشياء أخرى»، ابتسَمَ: «والآن، أسألك أنا»، صمَتَ لحظة، سألَني:

«لو كان مطلوبًا منك أن تكون كِتابًا، ما الكتاب الذي تحب أن تكونه؟».

فكَّرْت، سألَني قبل أن أتوصَّل إلى إجابة:

«لو كان مطلوبًا منك أن تكون جُملة، ما الجُمْلة التي تحب أن تكونها؟».

فكَّرت، سألني:

«لو كان مطلوبًا منك أن تكون كلمة واحدة، ما الكلمة التي تحب أن تكونها؟»، في هذه اللحظة حَطَّ هُدْهُد على كتفي، توقَّفت، أنظر إلى الهدهد وينظر إليّ، ابتسمَ المتشرِّد.

قال: «هل تعرف أنَّ رجلاً ربما يعيش مائة عام، ولا يَحُطُّ طائر على كتفه»، تذكَّرْتُ أمنية «البائع المتجوِّل» لي بأن يَحُطَّ طائر على كتفي، مَسَحْتُ ريش هُدْهُدي.

قال المتشرِّد: «اِهمِسْ لطائرِكَ بكلمة في أذنه»، قرَّبَ الهدهد أذنه من فمي، همَسْتُ له بالكتاب الذي أُحِبُّ أن أكونه، والجُمْلة التي أُحِبُّ أن أكونها، والكلمة التي أُحِبُّ أن أكونها.

قال لي المتشرِّد: «ما قلته للهدهد لا تذكره لأيّ أحد، ولا تكتبه، هذا سرُّكما الصغير، اجْعَل بينك وبين العالم أسرارًا تخُصُّكما».

طار الهُدْهُد ومعه أحد أسراري في العالم.

ولم أكن لأفوِّت أن أسأل المتشرِّد عن ابتسامته:

«أنت تنظر من وقت لآخر إلى السماء وتبتسم، لماذا؟».

ابتسمَ المتشرِّد.

قال: «أنا أبتسمُ لله»، صمَتَ لحظة، وأكملَ: «في الحقيقة، الله يبدأ بالابتسام لي، وأنا أجاوب ابتسامته»، هزَزْتُ رأسي وابتسَمْتُ، غَطَّى المتشرِّد رأسه بالكاب، تأمَّلَني قليلًا.

قال: «حسنًا يا صديقي، أتمنَّى أن تناديك الشوارع باسمك»، تأمَّلْتُ روحه وهي تلمع في عينيه.

قلت: «أتمنَّى أن تعرف المزيد من نقاط التقاء السماء بالأرض».

ملاك المشي.

مشيْتُ باتجاه شارع قريب، التفَتُّ خلفي، لم أجد المتشرِّد، نظرْتُ أمامي، رأيت ورقة تدور في الهواء، ثم تلتصق بصدري، فتحْتُها، وجدْتُ جملة مكتوبة بالأصفر، كانت باللغة الروسيَّة، قرأتُها بصوت مسموع:

«Алексей Любит Настасья»، «أليكسي يُحب ناستازيا».

طيَّرْتُ الورقة.

دخلْتُ الشارع، رأيت وجه طفل يبتسم لي خلف جدار أحد البيوت، ابتسمْتُ له ومشيتُ باتجاهه، انسحَبَ الوجه، وصلْتُ إلى البيت، رأيت مدخل شارع آخر، والوجه نفسه يبتسم لي خلف ذيل قطة بحجم بيت، لها فرو أصفر وأخضر فاتح، تنظر إليَّ بعينين خضراوين، كلٌّ واحدةٍ منهما بحجم نافذة، توقَّفْتُ أتطلَّعُ إلى العينين العملاقتين، لاحظْتُ أنهما ثابتتان، خاليتان من الحياة، لا شيء في القطة يتحرَّك، إنه بيت على شكل قطة، ضَحِكَ وجه الطفل هناك، وانسَحَب.

مشيْتُ إلى البيت، مصنوع من خشب ملوَّن، وبه كل تفاصيل القطة، لا تنقصها غير نفخة الحياة، تلفَّتُّ حولي، كنت عند مدخل حَيّ كبير، أو ربما مدينة صغيرة، بيوتها على شكل حيوانات، طيور، أسماك، مشيْتُ بينها، لها رائحة عطريَّة خفيفة، بدا لي أن كل بيت منها نُحِتَ دفعة واحدة من شجرة، ونُقِلَ إلى هنا، أو أن الأشجار كانت هنا وتشكَّلَتْ منها البيوت، كانت بينها ممرَّات تتقاطع مع بعضها في فوضى لطيفة، وبين لحظة وأخرى يظهر لي، من إحدى النوافذ، وجْهُ طفل أو طفلة ويبتسم، أبتسم لهم، أعجبتني اللعبة، ولم أصادف شخصًا كبيرًا.

سمِعْتُ صوتًا يقول: «هل تسمح أن أمشي معك قليلًا؟»، رأيت صاحب الصوت واقفًا بجوار بيت على شكل زرافة، كان شابًّا يرتدي قميصًا أزرق فاتحًا، وبنطلون قُطنيًّا داكنًا، تأمَّلْتُه لحظة.

قلت: «أنت ملاك؟».

أومأ برأسه.

قال: «أم أنك لا ترغب أن تقضي بعض الوقت مع ملاك؟».

«أنا أتجوَّل، وأقضي بعض الوقت مع الجميع».

اقترَبَ مني.

«أنا ملاك المشي».

«هذا يناسبني نوعًا ما، أنا مُتجوِّل».

مشينا معًا، نظرْتُ إلى ظهره.

«أين أجنحتك؟».

«هذا يجعلني أسألك كيف عرفْتَ أني ملاك، رغم أنك لم ترَ أجنحتي؟».

«لا أعرف، أعتقد لأني لو رأيت شيطانًا سأعرفه».

ابتسَم وقال: «حسنًا، تظهر أجنحتي عندما أرغب في الطيران، وبعض حالات أخرى»، ابتسمَتْ لي طفلة من نافذة بيت على شكل فيل، وانسحَبَتْ، ابتسمْتُ للنافذة.

سألْتُ الملاك: «تقصد بملاك المشي أنَّ كل ما تفعله هو المشي في العالم؟».

«لا، أنا أساعد الأطفال في تَعَلُّم المشي».

«كيف؟».

«أتدخَّل فقط في التفاصيل، مثلاً، أُمسِك بقدمَي الطفل وأنقلهما في بدايات تعلُّمِه المشي، أزيح الأشياء التي تعترض طريقه ولا ينتبه إليها الآخرون».

«لكنَّ الأطفال يصطدمون ببعض الأشياء، ويسقطون».

«هذه الأشياء أضعها بنفسي، حتى بعد أن يُبْعِدها الآخرون، هي جزء من تعليم الأطفال المشي»، ابتعَدَ عني خطوة: «أُنظر، كلنا يعرف هذه المشية عند الأطفال»، مَدَّ ذراعيه إلى الأمام، قَلَّدَ طفلًا في بدايات تَعلُّمِه المشي، وهو يكاد ينكفئ، ثم قال: «أنا أمسك بأيدي الأطفال في هذه الأوقات حتى لا يسقطوا، البشر يتعجَّلون أن يمشي أطفالهم، أتفَّهم ذلك، ويدي الضعيفة تكون موجودة».

قلت «ومتى تتوقف عن مساعدة الطفل؟».

«بعد أول عشر خطوات يمشيها بمفرده، عندها أنتقل إلى طفل آخر»، وبدأ يُقَلِّدُ مشيات مختلفة لأطفال في بدايات تعلُّمهم المشي، ظهرَ في نوافذ البيوت أطفال يتفرَّجون عليه ويضحكون، ابتسمَ لهم وتحَمَّسَ في تقليد مِشيات كثيرة، وعندما توقف، هتفَ له الأطفال:

«اِفْعَلها من جديد».

قَلَّدَ الملاك مِشْيَات جديدة، وهو يقترب من النوافذ ويداعب الأطفال، ثم توقف، وقال لهم:

«كنتم تمشون هكذا يومًا ما».

مشينا معًا من جديد، سألته وأنا أُمرِّرُ عينيَّ على الأطفال:

«هل يعرفون أنك ملاك؟».

نظرَ إليهم.

«لا أعرف، أعتقد أن الأمر لا يُمثِّل فارقًا معهم، ولا معي»، توقَّفَ ونظر إليَّ.

«أنت عرفْتَ أني ملاك دون أن ترى فيَّ علامة، وقلت أنك من الممكن أن تعرف شيطانًا، دون أن ترى فيه علامة، هل تعتبر هذه ميزة فيك؟».

«لا»، وابتسمْتُ للأطفال: «هم المميَّزون»، صمَتُّ لحظة، وسألْتُ الملاك:

«أنت مَنْ ساعدني في تعَلُّم المشي؟».

«لا، كنت سأعرف لو أني فَعَلْت، هناك آخرون غيري»، تطلَّعَ إلى الممرَّات حولنا.

قال: «هل تعرف ما هو أكثر الأماكن اتساعًا ليمشي فيه الإنسان؟»، انتظرْتُ أن يكمل.

«عقلُه، عقل الانسان هو أكثر مكان يتَّسع للمشي، لا نهاية له»، ومشي بطريقة طفل صغير يتعلَّم المشي، راقبْتُه قليلًا.

قلت: «ربما أجمل لحظة في حياتك، هي أن ترى طفلًا يمشي دون مساعدة»، فكَّرَ لحظة.

قال: «ربما، أو أنها عندما ألمس يده لأساعده، أو شيء آخر، لكن هناك منظرًا أتوقف عنده دومًا، هو أن أساعد طفلاً على

المشي، وأراه يكبر ويساعد طفلاً آخر، ثم أراه بعد سنوات، وقد تقدَّم في العمر، ويحتاج من جديد لشخص يساعده في المشي»، صمَتَ لحظة، قال: «ليس مسموحًا لنا أن نساعد الكبار منكم في المشي، حتى المرضي أو العجائز، الأمر متروك بينكم أنتم البشر، لتساعدوا بعضكم بعضًا»، سمِعْنا في هذه اللحظة مجموعة من الأولاد والبنات يهتفون خلفنا مباشرة:

«اِفعَلْها من جديد»، كانوا يتبعوننا دون أن ننتبه.

قالوا للملاك: «هيا، اِفعَلْها من جديد»، بدأوا يقَلِّدون أطفالاً يتعلَّمون المشي، ابتَسَمْتُ والملاك لهم، بدأ يُقَلِّد مِشيَات مختلفة، يضحك الأولاد والبنات، يحيطون به وهم يمشون كأطفال صغار، انضمَمْتُ إليهم واختَرَعْتُ مِشْيَات، ربما كانت إحداها مِشْيَتي بالفعل وأنا صغير، كان الملاك ماهرًا جدًّا، انسجمَ معهم، توقَّفْتُ أراقبه، قال لي وهو يواصل مشياته:

«أعتقد أنهم سيحتفظون بي هنا لبعض الوقت، أتمنى لك ألا تتوقف عن المشي، أبدًا».

قلت: «شكرًا لك، أتمنى أن تعرف كل مِشيات الأطفال».

شيطان العرقلة.

ابتعدْتُ وأنا أفكر أنَّ لكل إنسان مشية تُميِّزه، ومهما بَدَتْ كل المِشْيَات متشابهة، فلا يحتاج الأمر غير بعض التدقيق، لنكتشف

أنها تختلف عن بعضها بعضًا، كل مِشْيَة هي جزء من روح صاحبها، وأحيانًا نعرف الأشخاص على مسافات بعيدة من مِشْيَتهم، لا يوجد شخصان في العالم لهما المشية نفسها، ربما ذلك موجود أيضًا في الحيوانات، الطيور، والأسماك، لكل فردٍ منها حركته الخاصة.

دخلْتُ مَمرًّا عن يمينه بيت على شكل عصفور، وعن يساره بيت على شكل فراشة، عرقلني شخص من الخلف، كِدْتُ أسقط لكني تماسَكْتُ، نظرْتُ خلفي، لم أجد أحدًا، سمِعْتُ صوتًا يقول:

«أنا هنا».

رأيت صاحب الصوت، كان شابًّا يقف إلى جوار بيت على شكل غزالة، يرتدي قميصًا كاروه، به خطوط بيضاء وبنفسجية، وبنطلون جينز أزرق، تأمَّلْتُه لحظة.

قلت: «أنت شيطان؟».

«كيف عرفتني؟».

«ربما لأني سأعرف الملاك لو رأيته».

«لا تغْتَرّ، هذه ليست ميزة»، اقتربَ مني.

«أنا شيطان العرقلة».

«أنا مُتجوِّل».

«وليس لديك مانع أن تتجوَّل مع شيطان لبعض الوقت؟».

مشينا معًا.

سألْتُه: «رأيتني مع ملاك المشي؟».

«نعم»، ومشي عِدَّة خطوات بطريقة طفل يتعلَّم المشي.

قلت: «يمكنني أن أتوقَّع أنك مَنْ يُعَرقِل الأطفال أثناء مشيهم».

«أُعرقل الكبار فقط، لا أتدخَّل في عمل ملاك المشي، ولا يتدخَّل هو في عملي».

«ولماذا تُعرقلهم بالأساس؟».

«أولاً للضحك، كي أضحك منهم، أو كي يضحكوا من بعضهم بعضًا»، مشي بظهره، وقال:

«كم مرة ضحِكْتَ من شخص تعثَّر ووقع، ها؟ وكم مرة ضحِكْتَ من نفسك؟».

ابتسمْتُ وقلت: «هذا يعتمد على، أحيانًا لا يكون الأمر مُضحِكًا، بالعكس».

قال: «ابتسمْتَ على الأقل قبل أن ترُدّ، رأيتك، لا يمكنك أن تُنكر أنه مُضحِك في بعض الأوقات، وبالنسبة لي، هي أوقات كثيرة، الأهَمّ، إني لا أؤذي مَنْ أعرقله».

«البعض يتأذّى بالفعل».

توقف عن المشي بظهره.

قال: «في هذه الحالة لستُ أنا، يتعثّر أحدكم وقتها بنفسه لأنه مُتعجِّل، أو لم ينتبه لشيء في طريقه»، ظهر طفل خلف النافذة، وابتسم لشيطان العرقلة، فكَّرْتُ أنَّهم لا يهتمون إنْ كان شيطانًا أم لا، مثل حالهم مع «ملاك المشي».

قال شيطان العرقلة: «أكثر من ذلك، أنا أُعرقلكم أحيانًا لأمنع عنكم الأذى».

«ربما».

«ألم يحدث أنْ تعثَّرْتَ أنت قبل الوصول إلى شيء ما، وعرفْتَ أنك لو لم تتأخَّر هذه اللحظات لأُصبْتُ بأذى؟».

أعرف أني مرَرْتُ بهذا الموقف كثيرًا.

قال: «أحيانًا أخرى أعرقل شخصًا مغرورًا ليضحك الآخرون منه، وعندما يفعلون يعرفون أنه ليس بهذه القوة التي يعتقدونها، وفي الوقت نفسه ينكسر بداخله شيء ما».

«ظننتكَ تحب أن يغْتَرّ البشر، وعندها لن تكون في حاجة لأن تعرقلهم».

«تعرف؟ هناك درجة من الغرور، حتى أنا لا أتحمَّل رؤيتها، تغيظني، وعندها لا أستطيع منع نفسي من التدخل»، ضحكَ ضحكة قصيرة، قال: «هذا الشخص أُعرقله بطريقة خاصة تجعله يسقط بشكل مُضحك جدًّا، على أيَّة حال، المغرور يتهشَّم بسهولة، عكس ما يمكن أنْ يتوقَّع البعض، سقطة واحدة، بسيطة، تُفقده ثقته المزعومة، وتهدم صورته الزائفة».

سحَبَ قطعة شيكولاتة من جيبه، فَكَّ غلافها وهو يقول:

«الغرور تافه، مُضحِك، ومثير للشفقة أحيانًا»، كسر قطعة من الشيكولاتة، ومدَّ يده بها إليّ، أخذتُها، قضمْتُ منها، كانت بُنيّة، خالية من المكسرات، نوعي المفَضَّل.

قلت: «هل حدث وعرقَلْتَني يومًا، لأيّ سبب».

«لا، هناك آخرون غيري، لكن يسرُّني أن أفعل الآن»، حاول أن يعرقلني عِدَّة مرات وأنا أتفاداه، سمِعْنا ضحكات الأطفال، نظرنا إليهم في نوافذهم، وابتسمنا.

مشينا، نتطلَّعُ إلى البيوت.

قلت: «ماذا تفعل هنا؟ يبدو المكان خاليًا من كبار تُعرقلهم».

«فقط خرَجْتُ أبحث لطفلتي عن لعبة ما، رأيت المكان من أعلى، وتوقَّعْتُ أن أجد فيه شيئًا يعجبها»، أَخرجَ من جيبه حافظة

جلديَّة صغيرة، فتَحَها على جيب شفاف، بداخله صورة فوتوغرافيَّة لطفلة في عمر ثلاث سنوات تقريبًا.

قال: «أجمل ابتسامة في العالم».

شَعرها بُنِّي فاتح، عينان خضراوان، واسعتان، وابتسامة كبيرة.

ابتَسَمْتُ لها، وقلت:

«طفلة جميلة، ما اسمها؟».

«أنا أُسمِّيها ‹صوت المطر›».

«اسم شاعري».

ابتسمَ لطفلته قليلًا، وأعاد الحافظة إلى جيبه، تلفَّتَ حوله وهَتَف:

«يا أطفال، لي طفلة جميلة، أبحث لها عن لعبة جميلة، هل لديكم مفاجأة؟»، ظهر أطفال في جميع النوافذ، ونظروا إليه.

قال: «يمكنني أن أدفع لكم، أو أفعل أشياء مُسلِّية، أو الاثنان معًا».

قلت له: «أعتقد أنهم غير مهتمين بأن تدفع لهم»، اختفى الأطفال من النوافذ، وخرجوا بعد لحظات، اتجهوا إلينا، سألوا شيطان العرقلة:

«ماذا لديك لتسلِّينا؟»، مرَّرَ عينيه عليهم.

قال: «يبدو أن الأمر لن يكون سهلاً، حسنًا، سأبذل كل جهدي لتسليتكم».

«هيا، أَرِنا ما لديك».

قلت لشيطان العرقلة: «قبل أن تبدأ، أريد أن أودِّعك، يبدو أنها صفقة صعبة هنا»، ثم نظرْتُ إلى الأطفال، وقُلْتُ: «ودَدْتُ لو أتسلَّى معكم، لكن لديّ مهمة ما».

رَدُّوا: «حسنًا، لا تهتم، حظًّا سعيدًا».

قلت لشيطان العرقلة: «أتمنى أن تستطيع تسليتهم، وتحصل على لعبة لطفلتك».

قال: «شكرًا لك، أتمنى أن تصادف لعبة لا تنساها».

وَسَط العالم.

دخلْتُ ممرًّا قريبًا، رأيت وشاحًا برتقاليًا يطير في الهواء، يدنو ويرتفع، أمسكْتُه، رأيت فيه تطريزًا بخيوط فضيَّة، كان جملة باللغة اليابانية، قرأْتُها:

"勇愛する明美"، «إيسامو يُحب أكيمي».

سمِعْتُ ضحكات الأطفال وشيطان العرقلة، توقَّعْتُ أن يحصل على شيء لطفلته، وأطلَقْتُ الوشاح.

خرج بي المَمَرّ إلى جسر خشبي فوق نهر، رأيتُ على الجهة الأخرى مباني حديثة الطراز، عبَرْتُ الجسر، ثم ساحة صغيرة، وجدْتُ نفسي في مكان يشبه منطقة «وسط المدينة» لأيّة مدينة بالعالم، تتنوَّع البنايات بين ثقافات وطرازات عديدة، شوارع متقاطعة، ميادين وساحات صغيرة، مقاهٍ أنيقة، مطاعم بأسعار رخيصة، فنادق بسيطة تضع في مدخلها لافتات بأسعار الغُرَف، موسيقا من ثقافات مختلفة، محلات تبيع مخبوزات، مكتبات، باعة صُحُف ومجلات، أكشاك للورد، أشجار قصيرة تم تهذيب أغصانها على هيئة طيور، حيوانات، وكلمات بلغات مختلفة، وهناك بعض صناديق صغيرة من خشب وزجاج، مُثَبّتَة بالجدران، مكتوب عليها: «طعام نظيف، خذ ما يكفيك»، وبداخلها طعام مجاني، الجدران كلها مُلَوَّنَة بمزيج من رسومات ومقاطع من أشعار وقصص، مُعْظَم مَنْ في المكان شباب وشابات، يبدُون كأنهم لا يغادرونه أبدًا، وفي الوقت نفسه يبدون كعابرين أو مسافرين، بعضهم يُعَلِّق حقيبة صغيرة في كتفه، أو جِرابًا صغيرًا حول خصره، وجوههم تدلُّ على جنسيات مختلفة، أشعر أني رأيت هذه الوجوه من قبل، أسمع كلمات بلغات عديدة، وأفهمها، فوضى مُحبَّبَة، وأُلْفة غامضة، مكانٌ صَنَعَ مزاجه الخاص، يبدو مُتوَحِّدًا مع نفسه، ومفتوح على كل مكان، ولأيّ أحد، شعُرْتُ أني لسْتُ في وسط مدينة بعينها، أنا في «وسط العالم».

توقفتُ أمام عرض مسرحي، يؤديه مجموعة من الشباب على مسرح بالشارع، الجمهور وقوف، لا مقاعد، بجوار المسرح حفل توقيع جماعي لكُتَّاب شباب، صفوف من الكتب فوق طاولات، وعلى الأرض، روايات، قصص، شِعْر، وكتابات أخرى، إلى جوار حفل التوقيع فرقة موسيقية حولها دائرة من المتَفرِّجين، معرض لرسوم، لوحات، كاريكاتير، كوميكس، وفي زاوية من ميدان صغير كانت شاشة عرض سينمائي، والجمهور وقوف.

كل الفنون ممتزجة معًا، امتداد لبعضها بعضًا، روح واحدة بأشكال مُتعدِّدَة، وفي الوقت نفسه يمكنني أن أستمتع بكل فنٍّ منها منفردًا، رأيتُ هذه الحالة من قبل، وأُحبها.

تساقطَ مطر خفيف، انتعَشَ مزاج المكان بزيادة، ومزاجي، صيحات، ضحكات، مطر، موسيقا، ورائحة طعام خفيفة، أتجوَّل، أَسكُبُ كل فنون المكان معًا بداخلي، أو أُمرِّرُ أحدها إلى روحي وأضع البقيَّة في الخلفيَّة، ثم أبادل أماكنها، إلى ما لا نهاية، ومرة أخرى: أحب هذه الحالة.

دخلْتُ مقهى، طلَبْتُ قهوة سادة، وضَعَها «النادل» على طاولتي.

«أهلاً بك، هذه مجانية».

«لماذا؟».

«أول زيارة لوَسَط العالم، تحصل على كل شيء مجانًا».

«على أيَّة حال لم أكن واثقًا أنك ستقبَل نقودي».

«كل النقود هنا مقبولة، وكل لغة مفهومة»، قال النادل، صمَتَ لحظة، وأكمل: «ما يهمُّ أنْ تعرفه، أنَّ المكان مفتوح على العالم، كل شارع هنا يؤدي إلى وَسَطْ عاصمة ما، لكنك لن ترى الشارع الذي يؤدي إلى عاصمتك، ولا يستطيع أحد أن يأتي من عاصمته إلى هنا مباشرة، لا بُدّ أن يتجوَّل في العالم لمدة كافية، مثلما فعَلْتَ أنت».

لم أسأله كيف عرفَ أني أتجوَّل، وما المدَّة الكافية التي يقصدها؟ رأيت في زاوية قريبة رجلاً يجلس إلى طاولة، بدا في الخمسين من عمره، به شيء شفاف، يمسك بقلم رصاص وينظر إلى ورقة فوق طاولته، ربما ينتظر إلهامًا من عالمه الخاص.

قال النادل: «لم يتحرك من مكانه منذ عام كامل، عندما جاء لأول مرة، طلب مني فنجان قهوة، ولم يفتح فمه بعدها، لا يأكل ولا يشرب، عدا فنجانين كل يوم، أحدهما بالنهار، والآخر بالليل، يكتب ويمحو، شخص في مكانه كان لا بد أن يتعفَّن، لكن أُنظر إليه، يزداد وجهه تألقًا كل يوم، ملابسه جديدة، ورائحته وَرْد، أو شيء مثل هذا، أنا متأكد أنه سيتحوَّل يومًا إلى شيء ما».

«أو ربما يُحَوِّل مقهاكَ إلى شيء ما».

فكَّرَ «النادل»:

«أيًا كان، أتمنَّى ألا تفوتني هذه اللحظة».

«يمكنني أن أقترب منه؟»، سألْتُ النادل.

«ليس قريبًا جدًّا، ولا تُحدِّق في ورقته، لن يشعر بك على أيَّة حال».

اتجَهْتُ إلى الرجل، لمَحْتُ جملة في ورقته، لكنه أَمسكَ ممحاتَه ومَحا ما كتبه، دخلْتُ مجاله بخفَّة، رأيتُ في الورقة آثار كتابة ومحو كثيرة، شمَمْتُ منه رائحة وَرْد، ورأيت فيه، اممم، لا أعرف، شيئًا أَحبَبْتُه وفَضَّلْتُ ألا أُفتش عنه، كأنه سيفقد فتنته لو رأيته بوضوح، انتظرْتُ أن ينظر الرجل إليّ، حرَّك القلم بين أصابعه، تركته كي لا أزعجه، قابلني «النادل» في طريقي إلى طاولتي، دَفَعَ بابًا جانبيًّا.

قال: «ربما تحب أن تُجرِّب هذا الجزء من المقهى».

عبَرْتُ الباب، وجدْتُ نفسي في جزء، يبدو أن له خصوصية ما، نور أزرق سماوي، حوائط غير حقيقية، ملأى برسوم وألوان، ابتسمْتُ وأنا أُمَرِّرُ عينيَّ على المتواجدين، عرفتُهم: «الرَّسْم» جالسٌ إلى طاولة بالمنتصف، يُحرِّك أصابعه في الهواء ويتطلَّع إلى الحوائط، فتتغيَّر رسوماتها، «الموسيقا» جالسة في زاوية بجوار بيانو، تُمرِّرُ إصبعها على سطحه، وتبتسم لأنَّ «الشِّعر» واقف بجوارها يهمس لها، انتقلْتُ إلى ركن دائري صغير، رأيت «السينما»

جالسة على طرف مقعد، تتفرَّج على «المسرح»، وهو يؤدي مشهدًا ما، توقَّفتُ بجوارها أتفرَّج عليه حتى انتهى، صفَّقَتْ له «السينما»، وقالت لي:

«رائع، ها؟»، تأمَّلْتُ عينيها.

قلت: «الكل هنا رائعون».

«شكرًا لك، والآن دَوْري»، تبادَلَتْ مكانها مع «المسرح»، أدَّتْ مشهدًا قصيرًا، صفَّقَ لها «المسرح»، نظرَتْ إليّ، ابتسمَتْ وقالت:

«عيناكَ تلمعان».

«لأنهما تنظران إلى روح مميزة»، كان مطرًا أزرق يهطل بداخلي لأجلها.

رأيت «القصة» و«الرواية»، جالستَين كما يليق بصديقتَين إلى طاولة صغيرة، «الرواية» أربعينيَّة بثديَيْن قويَّيْن نصف مكشوفَيْن، يميل جسدها إلى امتلاء لطيف، مُنَظَّم، وبها غِواية حِسيَّة، حتى إني شَعرْتُ بانتصاب مُفاجئ، القصة شابة في بداية العشرينيات، عيناها ذكيَّتان، متمرِّدَتان، تمنحانك الشجاعة لتلقي بنفسك إلى المجهول، ولها ساقان متـألقتان مثل بطن سمكة شابة.

أتوقَّع أن الصديقتين لا تتقدَّمان في العمر، أربعينيَّة وعشرينيَّة إلى الأبد.

سأمُرُّ بهما الآن.

سمِعتُ «الرواية» تضحك وتقول: «أنا أرض الأحلام».

ابتسمَتْ «القصة» وقالت: «وأنا الأحلام».

قلت وأنا أمرُّ بجوارهما: «وأنا الحالم»، التفَتَا إليّ، غمزتُ لهما بعيني، ومرة أخرى شعرتُ بانتصاب لأجل الرواية.

رأيت «النادل» واقفًا عند باب زجاجي مُلوَّن، أَومأ لي، اتجهْتُ إليه، لمَحْتُ «الموسيقا» و«الشِّعر» وقد تبادَلا الأماكن: «الشِّعر» جالس، يبتسم، وهو يرسم بإصبعه في سطح البيانو، و«الموسيقا» تهمس له.

وصَلْتُ إلى «النادل»، دفَعَ الباب وهو يقول بطريقته:

«ربما تحب أن تُجَرِّب هذا المَمَرَّ».

في فناء المدرسة.

عبَرْتُ الباب، مشيْتُ في مَمرّ يمتد عدَّة أمتار، وصَلْتُ إلى باب خشبي قديم، دفَعْتُه قليلاً، غمَرَ نور الشمس وجهي، أغمَضتُ عينيَّ لحظات، فتَحْتهما، ودَخَلْت، رأيت فناءَ مدرسة بسيطة، أرضه مفروشة بالرمل، وتتوَزَّع حوله عِدَّة فصول خالية.

رأيت بعض الأشخاص مُوزَّعِين في الفناء، تطلَّعوا إليَّ في وقت واحد، وعاد كلٌّ منهم إلى ما كان يفعله، عرفْتُ البعض منهم: في

منتصف الفناء «آينشتاين» بشَعْرِه الرمادي المُهوَّش، وشارِبه الكَثّ، يرتدي بدلة كاملة، بربطة عنق مَفْكوكةً قليلًا، يجلس إلى «طاغور»، بشعره الأبيض، المفروق من المنتصف، شاربه، لحيته، وزيّ هندي بسيط، بينهما طاولة صغيرة مستديرة، فوقها آلة كمان جهة «آينشتاين»، وأوراق جهة «طاغور»، وكلٌّ منهما يميل ناحية الآخر، كأنهما في محاورة ما.

إلى يمين البوّابة «فريدا كاهلو»، جالسة في كرسي متحرِّك، تعمل على إحدى لوحاتها، شعرها الأسود مفروق من المنتصف، مجدول في ضفيرة حول رأسها، بها وردتان حمراوان، وعلى بُعْد خطوات منها يجلس «بيتهوڤن» إلى البيانو، متماهيًا مع عزفه، في جاكيت بدلة أزرق، قميص أبيض، ووشاح أحمر معقود بخِفَّة حول رقبته، بَعْدَه بمسافة مترين تقريبًا، كان رجل عارٍ في مغطس خشبي مليء بالماء، وقريبًا من المغطس رأيت رجلاً من ظهره، ينظر من تليسكوب كبير يُوَجِّهه إلى السماء، وبجواره طاولة صغيرة فوقها أوراق وأشياء أخرى، وإذا كان «آينشتاين» هنا، هل أتوقَّع أنَّ مَنْ ينظر عَبْرَ التليسكوب هو «جاليليو»؟.

في زاوية بعد «جاليليو» ستارة صغيرة مشدودة على حامل أفقي، خلفها صبي مكشوف الصدر، مستلقٍ فوق شيزلونج طبي، وحوله رجلان، أحدهما يرتدي ثوبًا بسيطًا من قطعة واحدة: عباءة بلون أخضر فاتح، تُشبه ما كان يرتديه اليونانيون القدماء، والآخر يرتدي

ملابس عربية، تشبه ما رأيته في عصر «عباس بن فرناس»: عباءة بلون أزرق سماوي، وعمامة بيضاء، طبيبان على الأرجح.

اتجهْتُ إلى «فريدا»، توقَّفْتُ خلفها على مسافة لا تزعجها، كانت ترسم لوحتها «الأيْل المجروح»، يحمل الأيْل وجه «فريدا» نفسه، والسهام مغروسة في جسده، تكاد اللوحة تكتمل، التفتَتْ إليَّ، ابتسَمْتُ وقلت:

«مرحبا فريدا».

ردَّتْ: «مرحبا».

ذلك الألم في عينيها، حاجباها المتصلان، شاربها الخفيف، شفتاها ملوَّنتان بأحمر وردي، يتدلَّى من أذنيها قرطان قرمزيَّان، وعلى صدرها عُقْد به حبَّات بنفسجية كبيرة، كانت ترتدي ثوبًا من كِتّان زهري، نصف كُم، حرَّكَتْ يدها بالفرشاة في الهواء كأنما ترسم شيئًا ما، أومأتُ لها، مشَيْتُ إلى «بيتهوفن»، تباطأتُ عنده، يعزف مقطوعة «ضوء القمر»، طريقته في العزف بها مَسٌّ من غضب وجنون، اقترَبْتُ من رَجُل المغطس الخشبي، ربما يكون في الخمسينيات من عمره، ملامحه بها شيء رجولي وطفولي معًا، ينقل عينيه بين نماذج خشبية صغيرة تطفو أمامه، فيل، أَوزَّة، دولفين، ويدفعها بطرف إصبعه كأنه يُحَفِّزُها لتَبُوح له بسِرّ ما، انتقلْتُ إلى «جاليليو»، ينظر من عدسة تليسكوبه، يميل جسده إلى الامتلاء، بجواره طاولته الصغيرة، فوقها أوراق وأقلام وعدسات

أظنها للتليسكوب، يُحَرِّك عين التليسكوب في زوايا مختلفة من السماء، نقَلْتُ عينيَّ مع كل زاوية، لم أرَ غير شمس منتصف النهار، والسماء الصافية.

سمِعْتُه يقول: «هل تحب أن تلقي نظرة؟»، لم يكن غيري بجواره.

قلت: «نعم، من فضلِك»، التفَتَ إليّ، وجهه ممتلئ، عينان مستديرتان بهما لون أخضر خفيف، شعر بُنِّي فاتح، صَلَع خفيف على جانبي الرأس، ولحية قصيرة بها مزيج من الرمادي والبُنِّي الفاتح، تركَ لي مكانه، وضعتُ عينيَّ خلف العدسة، رأيت سماءً عميقة الزرقة، شمسًا، عناقيد من أشكال فضيَّة، وخيوطًا ملوَّنة تلتفُّ حول نفسها.

سمِعْتُ «جاليليو» يقول: «سأغَيِّر العدسة»، رأيت السماء وقت الغروب، وعِدَّة شموس بأحجام وألوان مختلفة تتبادل أماكنها، غَيَّرَ «جاليليو» العدسة ثانية، رأيت سماء ليليَّة، القمر بتفاصيله، وتشكيلات من النجوم على هيئة طيور، حيوانات، وأشكالاً هندسيَّة، لمَسَ «جاليليو» كتفي، وقال:

«تحب أن ترى أجمل عشر نساء خلال العشر سنوات القادمة؟»، حرَّكَ التليسكوب إلى نقطة معينة، رأيت أمامي عشر نساء جميلات.

«تحب أن ترى أجمل خمس نساء خلال المائة عام القادمة؟».

رأيت الجميلات الخمس عبْرَ التليسكوب.

«الآن أجمل امرأة خلال الألف عام القادمة».

ورأيتها، أجمل امرأة خلال الألف عام القادمة.

سألته: «اخترتهُنَّ بنفسك؟».

«لا، التليسكوب رآهن واختارهن، يفعل بنفسه بعض الأشياء».

قلت: «تليسكوب ذكي».

نظر «جاليليو» إلى تليسكوبه.

«نعم، أتمنَّى أن أرى به كل شيء في السماء»، تطلَّعَ إلى السماء، وهمَسَ لنفسه: «السماء، كل شيء، كل شيء».

قلت: «أتمنَّى لكَ ذلك».

مشَيتُ إلى الطبيبَيْن خلف الستارة، لمحْتُ «آينشتاين» يلتقط آلة الكمان من الطاولة ويعزف، أمسكَ «طاغور» بقلم رصاص ليرسم في الأوراق أمامه، وكلٌّ منهما ينظر إلى الآخر بطرف عينه ويبتسم، كأنهما يرتاحان قليلاً من محاورَتِهما، وصلْتُ إلى الطبيبَيْن، كانا يقفان حول الصبيِّ مكشوف الصدر وهو مُمَدَّد فوق الشيزلونج الطبي، وإلى جوارهما بعض أدوات الجراحة، بدا الطبيب الذي

يرتدي الملابس اليونانية في الستين من عمره، وجه مبتسم، حَدَبَة لطيفة بالظهر، وزميله ذو الملابس العربية يبدو في الخمسين من عمره، بشارب ولِحية مُشَذَّبَيْن، ابتسَمْتُ لهما، لم يُمانعا وجودي.

قال اليوناني للصبيّ: «أُقسم لك أنك ستكون بخير».

ابتسَمَ الصبيّ، وقال: «أُصدِّقُك أيها الطبيب».

قال الطبيب: «أقسم لك؟»، ضَحِكَ الصبي.

سأله الطبيب: «لماذا تضحك؟».

«لأنك تُقسِمُ كثيرًا».

التفَتَ الطبيب إلى زميله، وسأله: «هل أفعل هذا يا ابن سينا؟».

ابتسَمَ «ابن سينا»، وقال: «نعم أَبُقْراط، وتَبَّهْتُكَ إلى هذا مرات».

«فقط أريد أن أطمئنهم».

«الناس يثقون بك، لا داعي لأن تُقْسِم لهم طوال الوقت»، قال «ابن سينا»، وسألني: «هل يحتاج إلى هذا؟».

قلت: «كلاكما لا يحتاج إلى هذا».

«شكرًا لك»، قال «ابن سينا»، ونظر إلى أبقراط: «لدَيّ فكرة، لماذا لا تفكر في قَسَم واحد تؤديه بينك وبين نفسك مرة واحدة، وينتهي الأمر عند هذا الحد».

فكَّرَ «أبقراط»، قال:

«أُقسِم لك».

ضحِكَ «ابن سينا»، وقال: «أنت تُقْسِم ثانية؟».

«أقصد، أني سأصِيغُ قَسَمًا يؤديه كل طبيب، ولمرة واحدة في حياته».

قال له الصبيّ: «تُقْسِمُ على ذلك؟».

«أُقسـ...»، قطَعَ «أبقراط» كَلِمَتَه وابتَسَم، سمِعْنا شخصًا يهتف في فناء المدرسة: «εύρηκα،εύρηκα»، «وجدْتُها، وجدْتُها»، خرجنا من خلف الستارة، رأيت الرجل الذي كان في المغطس يجري عاريًا وهو يهتف «εύρηκα»، «وجدْتُها»، أدرَكْتُ أنه «أرشميدس» بكلمته الشهيرة، كان الماء يَقطُر منه، وعضوه الضخم يتخبَّط بين فخذيه، اتجه إلى «آينشتاين» و«طاغور»، هتف فيهما «εύρηκα»، فتح «آينشتاين» فمه عن آخره، وأخرج له لسانه، ابتسمَ «طاغور»، وقال له: «هنيئًا لك»، جرى «أرشميدس» إلى «أبقراط» و«ابن سينا»، «εύρηκα»، «وجدْتُها»، قال له أبقراط: «أُقْسِم أني سعيد لأجلك»، ضحِكَ «ابن سينا»، وقال: «أنت تُقْسِم من جديد»، رَفَعَ «أرشميدس» الصبيَّ عاليًا في الهواء وتركه، التقَطه «ابن سينا» قبل أن يسقط إلى الأرض، جرى «أرشميدس» إلى «بيتهوفن» وقال له: «اِعزِف شيئًا لأجلي»، وحرَّكَ أصابعه كأنه يعزف على بيانو، نظر إليه «بيتهوفن»، نظرتَه الغاضبة تلك، وبدأ يعزف من «ضربات القدر»،

أدَّى «أرشميدس» حركات طفوليَّة على إيقاع الموسيقا، وجرى إلى «فريدا كاهلو»، قال لها: «ارسميني فريدا»، واتخَّذَ أوضاعًا مُضحِكَة، رسَمَتْ شيئًا في مؤخرته، ربما يكون أحد سهام أَيْلِها المجروح، فهقه «أرشميدس»، وابتعدَ عنها، وهو يقول: «أعرف ما فعَلْتِه فريدا»، كان «جاليليو» يتابعه من عدسة التليسكوب، توقف «أرشميدس» أمام العدسة، أدَّى حركات بها إعجاب بنفسه، ثم هتف: «ακηρύε»، جرى إلى مغطسِه، قفزَ عاليًا، ألقى بنفسه في الماء، تناثر الرذاذ ومعه نماذج الطيور والحيوانات، ربَّتَ «أرشميدس» ماء المغطس، وجعل جسده يطفو، ضحك وهو ينظر إلى السماء، قال: «انظروا أنا أطفو، ولا أُحَرِّك عضلة في جسدي، أنا أطفو، ها ها ها»، أغمضَ عينيه لحظات، ثم هتف: «أنا جوعاااان»، التفَتَ إلى «أبقراط»، وقال: «أين الوجبة المدرسيَّة أيها الأبقراط؟»، قال أبقراط: «ما زال أمامك عدَّة دقائق، اِصْبِر أيها الأرشميدس»، قال أرشميدس: «فقط دقائق»، حَدَّقَ في الصبيِّ: «وإلّا، أُقسم لك، أني سآكل قلب هذا الصبيّ»، أخرَجَ الصبيُّ لسانه له، وهتفَ: «ακηρύε»، «وجدْتُها»، ضحكنا جميعًا.

أمسَكَ «أبقراط» بيد الصبيِّ، وعاد به ومعه «ابن سينا» خلف الستارة، وجَّهَ «جاليليو» تليسكوبه إلى السماء، عادَ «آينشتاين» و«طاغور» إلى مُحاورَتِهما، وغرَسَتْ «فريدا» سَهمًا جديدًا في قلب أَيْلِها.

رأيت بوَّابة خشبية في جانب من الفناء، مَشيْتُ إليها، وخرَجْت.

روميو وجولييت.

وجدْتُ الوقت ليلًا، يمكنني أن أنظر من فتحات البوابة؛ لأرى أنَّ الوقت في فناء المدرسة ما يزال غروبًا، لم أفعل، سمِعْتُ «أرشميدس» يهتف «εύρηκα»، «وجدْتُها»، كان صوته بعيدًا، وله صدى مُتعدِّد، ابتسَمْتُ ومشيت، أعرف أني انتقلْتُ إلى مكان وزمن جديدَيْن: مدينة أرضها مرصوفة بقطع من حجارة، شوارعها متقاطعة، هادئة، أشجار، أعمدة إنارة قصيرة، بيوت يغلب عليها الأبيض والأصفر مع مساحات من الأحمر، لها شرفات قريبة، بدا لي أن لكل بيت في المدينة حديقة خاصة، ولكل حجرة شرفة تخصُّها، هل أتوقَّع أن كل شخص لديه حبيب؟ صعبٌ جدًّا، على الأقل ليس الجميع في الوقت نفسه.

كانت هناك بيوت فخمة، أقرب إلى قصور، يمكنني رؤيتها خلف الأسوار، التي كان بعضها واطئًا، والبعض ليس مرتفعًا، أرى القمر المكتمل فوق كل بيت، كأني أنظر إلى بيوت في كتاب من ألوان وظلال.

سمِعْتُ خَفْقَ أجنحة في الهواء، توقَّفْت، رأيت «عباس ابن فرناس» يطير باتجاهي على مسافة قريبة، ريشه يلمع في ضوء القمر، ابتسمْتُ ورفَعْتُ ذراعي لأعلى، قلَّلَ من سرعته، التقَتْ أعيننا، كان

يبتسم، مرَّرْتُ أصابعي بين ريش جناحه، ارتفعَ ثانية، راقبْتُه حتى اختفى بين السحاب.

«طِرْ يا بن فرناس».

رأيت في ساحة صغيرة مجموعة من الأولاد والبنات، يقفون على شكل دائرة، يتفرَّجون على فتى وفتاة في عمر السادسة عشر، يؤديان مشهدًا من «روميو وچولييت»، كان «روميو» جالسًا على الأرض بجوار جسد «چولييت» المُمَدَّد، يضع رأسها على ركبته، يتأمَّلُ وجهها، يبكي، ويهمس باسمها مُعتقِدًا أنها ميتة.

دخلْتُ شارعًا جانبيًا، رأيت شابًّا يتسلَّل إلى سور أحد القصور، بدا متهورًا، غير مُبال أن يراه أحد، يرتدي بدلة حمراء داكنة، لها ذيل طويل، كأنه خرج من سهرة أو ذاهبٌ إليها، لَمَحْتُ سيفًا مُثبَّتًا في جنْبِه، بدا كأحد أبناء الأُسَر الأرستقراطيَّة في زمن قديم، ربما يكون عاشقًا مُتسَلِّلًا، توقفَ عند السور، قفز وتعلَّقَ بحافته، وانتقل إلى الجهة الأخرى، لم أتردَّد في اللحاق به.. إذا كنتُ قد رأيته فهناك سبب لذلك، قفزْتُ من النقطة نفسها التي قفز منها.

وجدْتُ نفسي في الحديقة الخلفيَّة لقصر مُتعدِّد الشرفات، يتحرك الشاب كأنه يعرف المكان بدرجة كافية، وما زال غير مُبال، اتجهَ إلى شرفة إحدى الغرف الخلفيَّة، كانت قريبة، ومفتوحة، ظهرَتْ فيها شابة ترتدي ثوب سهرة برتقاليًا، اختبأ الشاب بين أشجار بجوار

الشرفة، وراقبَها دون أن تلاحظه، تسلَّلْتُ واقترَبْتُ منه، نظرَتْ الشابة إلى الأفق، كأنها تفكر في شيء ما، أو تُحدِّث نفسها، ظهَرَ لها الشاب، فرحَتْ به، وقفَ أسفل الشرفة، تبادَلا الحديث، اختبأتُ في المكان الذي كان يختبئ فيه الشاب وراقبتُهما، رأيتهما معًا في نور القمر، هو بوجه مسحوب قليلًا، وشعر بُنّي فاتح، وهي بوجه يميل إلى الاستدارة، شعر ذهبي متموِّج، وعينان زرقاوان، لماذا يُذكِّرني منظرهما بشيء رومانسي، قصة حب، أقولها لنفسي: «لماذا أفكر في «روميو» و«چولييت»؟.

سمِعْتُ الشابة تقول له: «روميو، إن كنت شريفًا في حبك لي، وتريدني زوجًا عفيفًا لك، فمصيرك مصيري، وسأمضي معك حتى نهاية عمري».

قال لها روميو: «چولييت، حبيبتي، أن تكوني زوجًا لي، فهذا نعيمي».

قالت چولييت: «إذًا، أُرسل لك غدًا، عند الساعة التاسعة، مَن تُعْلِمُه بموعد القران ومكانه».

أنا الآن أشاهد «روميو» و«چولييت» يتفقان على الهرب والزواج، مثلما كتب «شكسبير» في مسرحيته، ما أراه ليس مشهدًا في مسرحية، أو عَرْضًا يؤديه ولد وبنت في الشارع.

لكني أعرف أيضًا ما كتبه «شكسبير» في المسرحية: يعتقد «روميو» في مرحلة ما أن «چولييت» ماتت، فيشرب السُّم ويموت بجوار تابوتها، وعندما تفيق، لأنها لم تكن ميتة بالفعل، وتجده ميتًا، تقتل نفسها بخنجره.

إذا كان الأمر قد تجاوز كونه مسرحية كتبها «شكسبير»، وأرى الآن الفتى والفتاة أمامي، فيمكنني أن أتدخَّل وأنقذهما من الموت.

خرجْتُ من مكاني، فزِعَ «روميو» و«چولييت»، وكاد المتهوِّر أن يسحب سيفه، قلت لهما: «لا تخافا، لا داعي للخوف»، سألَتني چولييت: «مَنْ أنت؟»، قلت: «أنا أعرف ما سيحدث لكما، ولن يعجبكما إنْ لم تنتبِها لما أقول»، قال روميو: «ماذا تقصد؟»، نظرَتْ «چولييت» خلفها، وقالت لنا: «المُرَبية تناديني، ربما أمي قادمة، اذهبا»، قلت لروميو: «عندما يحين الوقت لا تشرب السُّم»، كاد أن يسحب سيفه، قبضْتُ على يده: «وقتها لن تكون چولييت ميتة»، قالت چولييت: «أنا؟ ميتة؟»، التفتَتْ خلفها: «أحدهم قادم، اذهبا»، أمسكْتُ بكتفَي «روميو»، قلت له: «تذكَّر ما قلته لك، لا تشرب السُّم، چولييت لن تكون ميتة»، قالت «چولييت» بصوت مكتوم: «الآن، اهربا»، قال لها روميو: «سأنتظر مَنْ تُرسلينَه إليَّ غدًا»، نظر إليَّ، وقال: «مجنون»، قلت: «لا تنسَ ما قلته»، وجرى كلٌّ منَّا في اتجاه، توقفْتُ بعد عِدَّة أمتار ونظرْتُ إلى «روميو»، رأيته يتوقف وينظر إليَّ، ثم أكمل كلٌّ منا طريقه.

أزميرالدا وكوازيمودو.

تفزتُ السور إلى الشارع، تلفّتُ حولي، لا أحد، انتظَرْت، لم يظهر «روميو»، ابتعدتُ عن قصر «چولييت»، فكّرْت: هل يتذكّر «روميو» ما قلته له، أم يعتبرني شخصًا غريب الأطوار، ماذا يحدث لو اهتم، وتذكّر، ولم يشرب السُّم؟ وما الأفضل لقصة «روميو» و«چولييت» بالأساس؟ أن يتذكَّر العاشق ما قلته له، وينتظر حتى تفيق حبيبته، أَمْ أنْ يشرب السُّم فيموت، وتَقتُل هي نفسها بخنجره، مثلما أراد لهما «شكسبير»؟.

رأيت نورًا طبيعيًّا داخل مَمرّ ضيّق، اتجهْتُ إليه، توقفْتُ عند بداية المَمرّ، طويل، لا يتَّسِع لأكثر من شخصٍ واحد، يدخل نور الشمس من ناحيته الأخرى، دون أن يتجاوزه إلى الناحية التي أقف فيها، ورأيت هناك مستطيلًا من سماء النهار.

مشيْتُ في المَمَرّ، توقَّعْتُ أن ينقلني إلى زمن ومكان جديدَين، أوصلني إلى ساحة كبيرة تمتلئ بالناس، رجال، نساء، فتيات، وأطفال، يتطلَّعون جميعًا إلى نقطة في منتصف الساحة، يقذفونها بالحجارة وبقايا الطعام، وهم يضحكون ويشتمون:

«قبيح، أحدَب، وَحْش».

لم تكن هذه النقطة غير «كوازيمودو»، مُقَيَّدًا بأحزمة وأربطة قوية إلى آلة تعذيب بدائية، ونِصْفه العلوي عارٍ، عرفْتُه بالنظرة

الأولى، هذا الجسد غير المنتظم، كثيف الشعر، بذلك الوجه، والحَدَبَة البارزة بين الكتفين، «كوازيمودو» من رواية «Notre-Dam de Paris»، «أحدب نوتردام»، «ڤيكتور هيجو».

مرَرْتُ بين الناس حتى وصلْتُ إلى القوس الأول حول «كوازيمودو»، تأمَّلْتُه، رأس كبير بشَعْرٍ مُهوَّش، عينه اليمنى مخفيَّة تحت ورم ضخم، أسنانه في فوضى تامة، وتبرز إحداها للخارج، ذراعان مُعوَجَّتان، وقدمان عريضتان.

آلة التعذيب عبارة عن مُكعَّب مَبْني من الحجر، ارتفاعه مترين تقريبًا، له سقيفة، ويتصل بالأرض عن طريق سُلَّم حجري، وهناك، فوق السقيفة، ما يبدو أنه عَجَلَة خشبية دوَّارة، موضوعة بشكل أفقي، وفي منتصفها عمود من الخشب، ربما لم تكن تفاصيل آلة التعذيب واضحة تمامًا، لكن واضح أنها ليست شيئًا للمزاح، حتى إنه لن يكون تعذيبًا مُريحًا.

كان «كوازيمودو» مُقيَّدًا فوق العجلة الدوَّارة جاثمًا على ركبتيه، ويداه مربوطتان خلف ظهره، مُجَهَّزًا للتعذيب، والجلاَّد يقف أمامه، وبيده سوط به شرائط طويلة.

دارت العجلة، طوَّح الجلاَّد بالسوط، صفَّرَتْ شرائطه في الهواء قبل أن تسقط على «كوازيمودو»، انتفضَ المسكين، اقشعَرَّ جلدي، وهلَّلَ الجمهور، تتابعَت الضربات والعجلة تدور، حاول

«كوازيمودو» أن يتخلَّص من قيوده، الجمهور يضحك، ويشتمه:

«يا قبيح، أحدَب، وَحْش».

سالَ دم «كوازيمودو» تحت ضربات السوط، استسلم، توقف عن محاولة التخلُّص من قيوده، ألقى برأسه على صدره، لم تصدُر عنه أيّة حركة رغم ضربات السوط المتزايدة، حتى توقف الجلاَّد، والعَجَلة.

كنت أعرف حَسْبَ ما كتبه «هيجو» أن «كوازيمودو» سيطلب الماء، و«أزميرالدا» وحدها ستسقيه، أنتظر ظهورها.

بدأ الجمهور يتسلَّى من جديد، يقذفون «كوازيمودو» بالحجارة، تمنَّيتُ لو اختفَتْ كل حجارة العالم، يشتمونه:

«أحدب، وحْش، قبيح».

ينقل عينه الوحيدة بينهم، التقَتْ عيناي بتلك العين، همَسْت له:

«كوازيمودو، أصمد»، توقَّعْتُ أن يقرأ شفتيّ، هو الأصمّ، أغلقَ عينه ببطء وفتَحَها ونظر إلى الجمهور.

مَرَّ ما يقارب الساعة، انتفَضَ «كوازيمودو»، طلبَ أن يسقيه أحدهم:

«ماء»، شتموه.

«ماء»، قذفوه بالحجارة.

«ماء»، أتحسَّسُ حقيبتي في كتفي، وأنا أعرف أنْ ليست معي قِرْبة ماء، أتلفَّتُ حولي بحثًا عن «أزميرالدا».

«ماء، ليسقني أحدكم».

ماذا لو سقاه أحدهم على غير ما كتبه «هيجو» في روايته؟.

رأيت الناس يفتحون ممَرًّا بينهم، وظهَرَتْ «أزميرالدا»: فتاة في السادسة عشرة من عمرها تقريبًا، سمراء، وجهها متألِّق، شعرها أسود، مجدول، وبه صفائح نحاسيَّة لامعة، عينان سوداوان، واسعتان، رموش طويلة، ترتدي صديريَّة حمراء صغيرة، بطنها مكشوف، ثم تنُّورة مزركشة بورود وخيوط فضيَّة، وحول خصرها حزام من قماش أحمر، تُعَلِّق فيه دُفًّا صغيرًا وقِرْبة ماء، كانت واثقة، مكتملة الأنوثة، وعنزَتُها تتبعها، اتجهَتْ إلى آلة التعذيب، صعَدَتْها، اقتربَتْ من «كوازيمودو»، سحَبَتْ من حزامها قِرْبَة الماء، وضعَتْ فوَّهتها بين شفتيه، كنت أنتظر هذه اللحظة، اقتربْتُ منهما، صِرْتُ وحدي في المسافة بينهما والجمهور، رأيت دمعة تسقط من عين «كوازيمودو»، وهو ينظر إلى «أزميرالدا» بامتنان، شرِبَ حتى ارتوى، ومَدَّ شفتيه يريد تقبيل يدها لكنها جذَبَتْها، ونظرَتْ بعينيها الجميلتَين في عينه الوحيدة، هلَّلْتُ أنا وصفَّقت، هلَّلَ الجمهور وصَفَّق.

نزلَتْ «أزميرالدا» عن آلة التعذيب، غادرَتْ ومعها عنزتها، فكَّرْت: هل أنتظر حتى يُحرِّروا «كوازيمودو»، أَمْ أَلحَقُ بها كي أُحذِّرها مما يمكن أن يحدث لها حسب ما كَتَبَه «هيجو»، ذهبْتُ خلفها، كانوا يُفسحون لها الطريق، ويُغلقونه أمامي، يدفعونني، اختفَتْ عن عينيّ، دفعتُ بنفسي بين الناس حتى خرَجْت.

رأيت عِدَّة شوارع تتفرَّع من الساحة، وكلها خالية، نادَيْت:

«أزميرالدا»، سمِعْتُ ثغاء عنزتها من أحد الشوارع، جريْتُ إليه، لم أجدها.

«أزميرالداا»، سمِعْتُ غناءها من شارع آخر، جريْتُ إليه، لم أجدها.

«أزميرالدااا»، سمعْتُ غناءها وضرباتها على الدُّفِّ من شارع آخر، جريْتُ إليه، لم أجدها.

تكَرَّرَ الأمر عدَّة مرات، قُلْتُ بصوت مرتفع:

«أزميرالدا، عندما يحين الوقت، اِبقي مع «كوازيمودو» حتى يزول عنكِ الخطر»، كرَّرْتُها ثلاثًا، وسألْت:«تسمعينني؟»، سمِعْتُ غناءها، كان بعيدًا، وظَلَّ يبتعد، بقيتُ في مكاني أستمع إليها، حتى اختفى صوتها.

تلفَّتُّ حولي، رأيت جملة مكتوبة بلون أحمر في حائط أحد البيوت، باللغة الفرنسية، قرأْتُها بصوت مسموع:

«Quasimodo aime Esmeralda»، «كوازيمودو يُحب أزميرالدا»، شعرْتُ أنَّ هذه اللقطة، أقصد الحائط والجُملة، ليست موجودة في رواية «هيجو»، لا أتذكَّر كل ما قرأتُه في الرواية، لكن يمكنني أن أشعر بما لم أقرؤه.

هل كتب «كوازيمودو» هذه الجملة؟ متى؟ قبل أن يكتب «هيجو» روايته؟ أثناء كتابته إياها؟ أو ربما كتبها «ڤيكتور هيجو».

دون كيخوته.

مشيتُ في الشارع، ينحدر بزاوية ليست كبيرة، وأنا حزين لأجل «كوازيمودو»، لم أصادف أحدًا، الجميع يتفرَّجون على المسكين في الساحة، ظهر لي من عمق الشارع فارس على حصانه، وإلى جواره شخص يركب حمارًا، كانا بطيئين، اقتربْتُ منهما، توقف الفارس على بُعْد خطوات، فتوقف زميله، كان التعب واضحًا عليهم هم الأربعة، قدَّرْتُ أنَّ الفارس في بداية الخمسين من عمره، نحيف، شاحب الوجه، على رأسه خوذة من ورق مُقوًّى، لديه سيف في جانبه، بإحدى يديه درع-ترس، وتتدلَّى الأخرى برُمْح كأنه غصن شجرة مُدَعَّم بشرائح من حديد، وكان حصانه هزيلاً، ما يُفجِّرُ هذه اللقطة هي تلك الجديَّة المبالغ فيها على وجه الفارس، نظرْتُ إلى زميله، بدا كتابعٍ له، رجل ممتلئ، في الأربعينيات من عمره، يجثم فوق حماره معَ جوال أو «خُرْج» صغير، ربما يحتفظان

فيه بأغراضهما، يمكنني أن أتوقَّع مَنْ يكونا، لكنَّ الفارس لم يُضَيِّع الوقت.

قال لي: «مرحبًا أيها السيِّد، أنا الفارس المَشَّاء دون كيخوته دي لا منشا».

«مرحبًا أيها الفارس النبيل، أنا متجوِّل».

قال الرجل فوق الحمار: «وأنا سانشو بانثا، تابع الفارس المَشَّاء النبيل دون كيخوته دي لا مانشا».

«مرحبًا سيِّد سانشو».

كانا مثلما وصَفَهُما «ثرفانتس» في روايته، تلفَّتَ «دون كيخوته» حوله.

قال لي: «هل هذه المدينة خالية من الناس؟ أنت أول بشريّ أصادفه هنا».

هل أُخبره أن الجميع يُعذِّبون «كوازيمودو» الآن في نهاية الشارع، وعليه هو، الفارس الشجاع، أن يُنقذه، لكني لو فعَلْت ربما تحدث له كارثة هناك، تشبه ما كَتَبَه «ثرفانتس» عنه في روايته، فيربطونه إلى آلة التعذيب، أو، لا أحد يعرف، ربما يحالفه الحَظّ بطريقة ما، ويُحَرِّر المسكين.

هَزَّ دون كيخوته الرمح في يده:

«قل لي أيها السيِّد، هل أهل المدينة خائفون من وَحْش، أو شخصٍ ما، أهناك مَنْ قام بنفيِهِم، أو أجبرَهم على الاختباء في بيوتهم، وإني لأقسم لك بأخُوَّة الفرسان المشَّائين أن أسحق عدوَّهم هذا، سواء كان وحشًا مرعبًا، أو جيشًا جرّارًا مُدَجَّجًا بالسلاح، ولا تقلق، فلن أطلب منك أن تساعدني، سأفعل هذا وحدي، أنا الفارس الشجاع دون كيخوته دي لا منشا».

وصلَتْنا أصوات الناس، وهم يُهَلِّلون في الساحة، شَبَّ دون كيخوته على حصانه، ونظر خلفي في عمق الشارع.

قال: «أسمع أصواتًا بشرية هناك»، نظرْتُ خلفي، كانت المسافة الطويلة نسبيًّا وانحدار الشارع يمنعان رؤيته إياهم، هلَّلَ الناس، نظر دون كيخوته إليّ:

«هل تسمع؟ إنهم ينادونني»، نظرَ إلى تابِعِه: «أتسمع سانشو؟ ينشدون مساعدتي، أنا الفارس النبيل دون كيخوته».

هلَّلَ الناس.

«لا يمكنني أن أتأخَّر عنهم، أنا الفارس المشَّاء، أتجوَّل في العالم لأرفع الظلم عن المظلومين، وأساعد الضعفاء والمقهورين».

قلت له: «إنهم لا ينادونك دون كيخوته»، كان ينظر خلفي في عمق الشارع ويهتف:

«أنا قادم لنجدتكم، الفارس المشّاء دون كيخوته سينقذكم»،

هَمَزَ بطن حصانه بكعبيه: «هيا، يا حصاني الشجاع روثينانتي»، توعَّكَ الحصان في مكانه، ثم نقَلَ أحد أقدامه، ومشي ببطء، التفتَ دون كيخوته إلى تابعِه: «هيا سانشو، ليُسعدكَ الحظُّ مرة أخرى، وتشاهدني في مغامرة جديدة».

هلَّلَ الناس، وضَحِكوا.

هتف دون كيخوته: «الفارس المَشَّاء الشجاع قادم لنجدتكم».

تأمّله تابِعَه «سانشو» بيأس، وقال:

«يا ويلتاه»، ضربَ بطن حماره بكعبيه، ومشي خلف الفارس الشجاع النبيل المشَّاء.

كنت أعرف أنه لا يمكنني مَنْع دون كيخوته، وإلا اعتبرني من الأعداء وطعنني برمحه، راقبْتُه يتمايل فوق حصانه، يصعد الشارع بصعوبة، والجماهير «تناديه» من الساحة، فيهتف لهم:

«الفارس الشجاع دون كيخوته قادم لنجدتكم».

كانت الساحة ما تزال بعيدة قياسًا إلى بُطئه الشديد.

تساءَلْتُ: هل يمكن أن يلحَقَ «كوازيمودو» وهو ما يزال على آلة التعذيب؟ وماذا يحدث وقتها؟.

الشيخ عبد ربه التائه.

استدرتُ ومشيْتُ، التفَتُّ خلفي بعد قليل، رأيت «دون كيخوته» رافعًا يده بالرمح وسمِعْتُ صدى هتافه، دخَلْتُ شارعًا جانبيًا، يُسلِّمني شارع إلى آخر، ونور الشمس ينسحب تدريجيًا، طَفَوتُ في تلك الدقائق التي تَلي الغروب، ودخلْتُ الليل، ربما أكون الآن في زمن ومكان جديدَيْن، شمَمْتُ رائحة أعرفها، الأرض ترابية، توقَّفْتُ أتطلَّع حولي، البيوت من طابق أو طابقَين، بسيطة، ومتلاصقة في أغلبها، لم أكن بحاجة إلى تفاصيل أخرى، ابتسَمْت، أنا داخل حارة بمدينة «القاهرة»، ربما في عصر الفتوَّات، القمر هلال، وحولي تشكيلات من نور خفيف وظلال، مشيْتُ على مهل، لا أصادف أحدًا، ربما الوقت متأخِّر، تُسلِّمني الحارات إلى بعضها بعضًا، تبدو إحداها مسدودة، وعندما أصل إلى نهايتها تنفتح على حارة أخرى.

ظهر لي عند نهاية إحدى الحارات رجل عجوز، يرتدي جلبابًا أبيض، وفوقه چاكيت بدلة أزرق، بدا طافيًا هناك، يشبه بطريقة ما دراويش ومجاذيب روايات «نجيب محفوظ»، اِبتسَمَ لي الرجل، مشيْتُ باتجاهه، وقبل أن أصل إليه دخَلَ حارة جانبية، هَرولْتُ إلى النقطة التي كان يقف فيها، لم أجده، سمِعْتُ همهمة كأنَّ أحدًا يهمس فوق كتفي، لم أَفْزَع، كانت الهمهمة مُطَمْئِنَة، التفَتُّ خلفي، رأيت العجوز عند نهاية حارة أخرى، مشيْتُ باتجاهه، اختفى،

هرولْتُ حيث كان يقف، لم أجده، وسمِعْتُ همهمة فوق كتفي، تكرَّرَ الأمر عدَّة مرات، توقفْتُ بمنتصف إحدى الحارات، قلت بصوت مرتفع:

«أوشكَ الليل أن ينتهي، لنفعل شيئًا جديدًا»، ظهَرَ لي الرجل عند نهاية الحارة.

قلت: «لا تهرب هذه المرة»، مشي هو باتجاهي حتى وصل إليّ، يبدو في السبعين من عمره، يميل إلى النحافة، شعره رمادي، مُصَفَّف بعناية، عيناه سوداوان، وعميقتان، له لحية وشارب خفيفان، ملابسه نظيفة، وشمَمْتُ منه رائحة ماء وصابون، كأنه تحَمَّمَ لتوِّه، ابتسمَ لي، ابتسمْتُ.

قلت: «كأني أعرفك، من أنت؟»، ظَلَّ صامتًا لحظة.

قال: «أنا، عبد ربه التائه».

لهذا كنت أشعر أني أعرفه، «الشيخ عبد ربه التائه»، شخصية كَتَبَها «نجيب محفوظ» في مجموعته القصصية «أصداء السيرة الذاتية».

قلت للرجل: «نعم، الشيخ عبد ربه التائه»، تأمَّلْتُ ملامحه من جديد، كأنه قادم من تلك المسافة الغامضة بين السؤال والإجابة، هَمَمْتُ أن أقول شيئًا، رفعَ يده عند صدره.

قال: «لو أنك ستسألني، فليس لديك فرصة إلا في سؤال واحد».

لم أكن أعرف إنْ كنت سأسأله أم سأقول شيئًا آخر، ربما ليست لديَّ فرصة إلا في جملة واحدة، فكَّرْت.

سألْتُه: «ما مفتاح أسرار الوجود؟».

قال: «الحب»، وظَلَّ ينظر في عينيّ، لم يَعُد لديَّ ما أقوله، أو أسأل عنه.

استدار «عبد ربه التائه»، مشي في عمق الحارة، وأنا أتأمَّلُه، توقَّفَ عند نقطة ليست بعيدة، نظر إليَّ من فوق كتفه، رأيت وجه «نجيب محفوظ»، ابتسمَ واختفى في حارة أخرى.

شوارع وأشجار تناديني.

خرجتُ من الحارة إلى شارع رئيسي، كان خاليًا، في الهواء لون أزرق حالم، وبرودة حلوة، سمِعتُ صوتًا يهمس باسمي، تلفَّتُّ حولي، لم أرَ أحدًا، سمِعْتُه يقول:

«أنا هنا».

توقفْت، ورأيته، كان صاحب الصوت شارعًا يتفرَّع من الشارع الذي أمشي فيه.

قال لي: «نعم، أنا مَنْ يناديك، الشارع»، تذكَّرْتُ أمنية المتشرِّد لي بأن تناديني الشوارع باسمي، ابتسمْتُ للشارع.

قلت: «أهلاً، كيف عرفتَ اسمي؟».

ابتسمَ وقال: «من السهل لأيّ شارع أن يعرف اسم أيّ إنسان».

«يبدو هذا منطقيًّا، وما اسمُك؟».

«اسمي الحقيقي لن أخبرك به الآن، لكن اسمي الذي يعرفه البشر، هو رقم 119».

«ماذا تقصد باسمك الحقيقي؟».

«لكل شارع اسم حقيقي تعرفه الشوارع، ولا يعرفه البشر، وكما تُطلقون علينا أسماءً، نُطلق نحن أسماءً عليكم».

«وما الاسم الذي اخترتموه لي؟».

«وحده الشارع الذي اختار اسمك مسموح له أن يخبرك به»، صمَتَ لحظة، وقال: «لا تقلق، ستقابل شارعك، وعندما يناديك باسمك الذي اختاره لك ستعرف أنك المقصود».

«كيف تكون متأكدًا أني سأقابله؟».

«عندما يناديك أحد الشوارع باسمك المعروف بين البشر، وهو ما حدث منذ قليل، فإنَّها علامة على أنك ستقابل الشارع الذي اختار اسمك الشوارعي».

«لن أسألكَ عن مكانه، لأني أُصدِّق أنَّ الشوارع لا تبقى بمكانها طوال الوقت».

«هذا صحيح، نتبادل أماكننا، أو نتجوَّلُ في العالم، ونبحث عن الحكايات، لا ننتظر أن تأتينا».

«هذا يناسبكم، التجوُّل والحكايات».

«نحن نقضي حياتنا كلها بلا بيت أو سقف، وهذا سِرّ وجودنا، أسوأ ما يحدث لشارع، هو أن يغطِّيه سقف لأيّ سبب»، صمَتَ لحظة، قال: «بخصوص اسمي الحقيقي، عفوًا، لا يمكنني أن أخبرك به قبل أن تقابل شارعك، ويُخبرُكَ باسمه الحقيقي، الأمر كله يبدأ من هناك».

ابتسمْتُ وقلت: «أحبَبْتُ اللعبة».

ابتسمَ الشارع.

قال: «حسنًا صديقي، يمكنك الآن أن تتابع تجوالك، أتمنى لك أن تناديك الأشجار باسمك».

قلت «أتمنى لك أن تبقى حُرًّا تحت السماء».

مشيْتُ وأنا أفكر: كيف ومتى ظهر أول شارع في الوجود؟ مَنْ أطلقَ عليه اسمه، أم أنه ظهر واسمه معه، ثم عَلَّم أول إنسان تَعرَّفَ إليه أن البشر بإمكانهم أن يختاروا أسماءً للشوارع.

لولا الإنسان ما كانت شوارع، ولولا الشوارع لكانت حياة الإنسان متاهة بلا شكل، يدور فيها طوال الوقت، دون وصول أو ضياع.

تساءلت: «هل سأقابل الشارع الذي اختار اسمي؟ ماذا يكون هذا الاسم؟ هل اختاره لشيء خاص رآه فيّ؟ وما هذا الشيء؟».

سمِعتُ صوتًا يهمس باسمي، تلفَّتُّ حولي، رأيت صفًّا من أشجار على جانب الطريق.

قالت لي شجرة قريبة: «نعم، أنا من أناديك».

قلت: «مرحبًا، ما اسمك؟».

«ليس قبل أن تقابل الشجرة التي اختارت اسمك الشَّجَري».

قالت الشجرة التي بجوارها: «الأشجار أيضًا تختار أسماءً للبشر»، كانت نبرة صوتها مختلفة عن صوت الشجرة الأولى، وعندما دقَّقْتُ النظر رأيت فروقًا واضحة بينهما، مرَّرْتُ عينيَّ على صَفّ الأشجار، بعضها يبتسم، والبعض يضحك.

ابتسمْتُ، وقلت: «يوم سعيد للجميع»، اختلطَتْ أصوات الأشجار وهي ترُدُّ عليّ، سمِعْتُ من بين ما قالته: «أتمنَّى لك أن تتجوَّل في الجنة».

مشَيت، أفكر أنه إذا كانت أصوات الأشجار مختلفة، فمن المتوقَّع أن يكون لكل نوع أو جنس منها لغة مختلفة، ثم هناك لكَنات مختلفة في اللغة الواحدة، مثلما هو حال البشر، الأمر نفسه مع الشوارع، الطيور، الأسماك، الحيوانات، تساءلْت: هل تراقبُ الطيورُ البشرَ أحيانًا أثناء مشيهم، مثلما نراقبهم في طيرانهم، هل يُفضِّلون مِشية شخص عن آخر، ويعتبرون البشر كائنات تُزيِّنُ الأرض، مثلما نعتبر الطيور في بعض أفكارنا عنها كائنات تُزيِّنُ السماء، هل يتمنَّون أن يمشوا على الأرض بمهارة، مثلما نتمنَّى أن نطير، ويُحبُّون أن يسمعوا أصواتنا مثلما نحب أن نسمع أصواتهم؟ هل لو جاءتهم الفرصة، سيحبسون البعض منّا في أقفاص، مثلما نفعل بهم، يتفرَّجون علينا، ويَتَسَلُّون بنا، الشيء نفسه الذي نفعله مع حيوانات، وأسماك؟.

فكَّرْت: هل أقابل يومًا الشجرة التي اختارت اسمي الشَّجَري، والحيوان الذي اختار اسمي الحيواني، والطائر الذي اختار اسمي الطائر، ربما كان هو الهدهد الذي وقف على كتفي، عندما كنت مع المتشرِّد، أُرجِّحُ ذلك.

رأيت السماء تلامس الأرض في نقطة بعيدة من الشارع، شعرْتُ أنها نقطتي التي حدَّثني عنها المتشرِّد، أو إحدى نقاطي، توقفْتُ أتأمَّلُها، مشيْتُ إليها، لم يكن هناك أحد غيري، وصلْت، وجدْتُ السماء تلامس الأرض بشكل حقيقي، مرَّرْتُ يدي على السماء، الأرض، لمستُهما معًا.

«يا للجمال».

صعدتُ من نقطة التماسّ إلى السماء، مشيتُ في شوارع ملوّنة، رأيت «المتشرِّد» في شارع موازٍ، أومأَ لي، وابتسم كأنما يقول «عثرتَ على نقطتك»، ابتسمْتُ وحرّكْتُ شفتيّ بكلمة «شكرًا لك»، قابَلْتُ «البائع المتجوِّل» بعربته الخشبيَّة، وهو يعزف على الهارمونيكا، ضحِكَ لي كلبه، وأطلقَ حصانُه من فمه بعض الفقاعات الملوَّنة، «المُهَرِّج» بقناعه الحزين، لوَّحَ لي، ورفع رأسه وهو يضحك، «البنت السمكة»، صنعَتْ لي بيديها حركة «السمكة السابحة»، فعلْتُ مثلها، وابتسَمْنا، وجدْتُ طائرة ورقيَّة، وأوراقًا بها سطور بخطّ اليّد، كانت طائرتي التي فقدْتُها وأنا صبيّ بعد أن انقطع خيطها، والأوراق بها ملاحظات كتبتُها عن قصة، وضاعت مني، مرَّرْتُ يدي عليهما، وتركْتُهما بمكانيهما.

وصلْتُ إلى نقطة أخرى تلتقي فيها السماء بالأرض، نزلْتُ منها، وجدْتُ نفسي في شارع يفصل بين البحر وصَفّ من البيوت، كان الشارع مُتصلاً بشاطئ البحر دون فاصل أو حاجز بينهما، والشمس تميل إلى الغروب.

تطلَّعْتُ إلى الشاطئ العريض، رمال بيضاء، قوارب، سفن، صيادين، ومقاه، نظرْتُ إلى البيوت، بسيطة، جميلة، ملوَّنة بدرجات

من الأزرق، وبينها شوارع صغيرة، لمحْتُ صحراءَ خلف البيوت، ربما أكون في ضاحية مدينة ساحليّة.

مشيْتُ إلى البحر، المقاهي على شكل كائنات وأشياء لها علاقة به: سمكة، محارة، سفينة، رأيت في واحدة من صخور الشاطئ جملة مكتوبة، بلون أخضر، كانت باللغة الإنجليزية، قرأتُها بصوت مسموع:

«Amelia loves Ryan» ، «أميليا تُحب رايان».

ومثلما أفعل كلما قابلْتُ بحرًا، اقترَبْتُ منه بحيث يلمسني، جلَسْتُ على ساقيّ، تحَسَّسْتُ الرمل، ملأتُ يدَيَّ من البحر، تذوَّقتُه بلساني وبلَّلْتُ وجهي، قلت له جملة أو جملتَيْن، وعندما نظرْتُ إلى الأفق لم أجد الشمس، رأيت اللون الأزرق الحالم، أُحِبُّه.

في بطن الدولفين.

مرَّرْتُ عينيَّ على المقاهي، مشيْتُ باتجاه واحدة لها شكل دولفين، توقفْتُ عند فمه المُبْتَسِم، وجدْتُ جملة مكتوبة على جانب الابتسامة بلون أزرق، باللغة اليونانية، قرأتُها بصوت مسموع:

«Σπυρος Αγαπά Σοφια»، «سبايروس يُحب صوفيا».

دخلْتُ المقهى، كانت أكثر اتساعًا مِمّا يدلُّ مظهرها الخارجي، جدرانها زرقاء، ملساء، بها خيوط حمراء وصفراء، وثمَّة رائحة

يُود في الهواء، رأيت بحّارة حول طاولات خشبيَّة، بدا أنهم من جنسيات مختلفة، توقفَتْ عيناي عند ثلاثة أشخاص، يجلسون إلى طاولة على بُعْد خطوات، عرفتُهم على الفور ودقَّ قلبي بقوة، أحدهم بحّار خمسيني، له شعر أحمر طويل، شارب ولِحيَة بلون الذهب، وأهَمُّ من أيّ شيء فيه كانت عيناه، شديدتي الزُّرْقة، وأوسع ما يمكن لبشري أن يحصل على عينَين، فيهما نظرة ذهول، كأنه ينظر إلى شيء جميل ومُرعِب، أعرف هاتين العينَين جيدًا، بجواره شابة في العشرينيات من العمر، شعر بُنّي مُجَعَّد قليلًا، وعينان لوزيَّتان أعرفهما جدًّا، بجوارها شاب يُحرِّكُ إحدى يدَيه على شكل موجة أثناء كلامه، أعرف هذه الحركة أيضًا.

هم ثلاث شخصيات روائية كتبتُها في روايتي «ألف جناح للعالم»، البحّار الخمسيني هو «القبطان المذهول»، الفتاة هي «سيمويا أكسيلينور»، والشاب هو «دوفو ماليمورا»، ليسوا شخصيات عرفْتُها في حياتي وكتَبْتُ عنها، أنا اخترعْتُهم بالكامل في الرواية، حسنًا، الآن أصادف شخصيات كتبْتُها، مثلما صادفْتُ شخصيات لكُتّاب آخرين.

مشيْتُ باتجاههم، توقفْتُ بين «سيمويا» و«دوفو».

قلت: «مرحبا»، التفتَ الثلاثة إليّ، توقَّعْتُ أن يعرفوني، أو يشعروا على الأقل بشيء خاص، لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، ساعدَتْني «سيمويا» على استيعاب صدمتي بابتسامتها.

قالت: «أهلاً بك»، تأمَّلْتُ عينيها اللَّوْزيتَين، مثلما وصفتهما في «ألف جناح للعالم».

ابتسمْتُ، وقلت: «العزيزة سيمويا»، ابتسمَتْ ونقلَتْ عينيها بين «القبطان» و«دوفو».

سألَني القبطان المذهول: «هل تعرفنا؟»، تأمَّلْتُ عينيه، نظرته المذهولة، ورغم أني مَن اخترعتها في روايتي، إلا أني تساءلْتُ مع نفسي «مِن أين له بهذه النظرة».

قلت: «نعم، مِن السهل أن أعرف بحارًا مثلك، أيها القبطان المذهول»، كان ما قلته عن كونه بَحّارًا معروفًا حقيقيًا، نظرْتُ إلى «دوفو»، حرَّكَ يده على شكل موجة، وقال: «هل تحب أن تشرب شيئًا معنا ؟».

«طبعًا، شكرًا دوفو»، سحبْتُ مقعدًا، وجلَسْتُ أقرب إلى «سيمويا»، وضعْتُ حقيبتي فوق ركبتي، رأيت أمام كلٍّ منهم زجاجة بداخلها مشروب أزرق لامع، وكوب زجاجي طويل، أشار «القبطان المذهول» إلى النادل، جاء ومعه زجاجة وكوب، وضعهما أمامي، أشارت «سيمويا» إلى زجاجتي.

قالت: «يُسَمُّونه أحلام البحر، يعثرون عليه داخل نوع مُعَيَّن من صخور بحَرِيَّة».

صَبَبْتُ لنفسي وشربْتُ دفعة صغيرة، طعْمُه مالح في البداية، وفي نهايته حلاوة خفيفة، لم يكن سيئًا ولا مفهومًا.

قال لي القبطان المذهول: «تعرفني لأني بحَّار، ولكن كيف تعرف سيمويا ودوفو؟».

قلت: «هما باحثان چيولوچيان معروفان».

قالت سيمويا: «أنت تبالغ، ربما يعرفنا بعض المتخصِّصين».

في «ألف جناح للعالم»، كان «دوفو» و«سيمويا» معروفَيْن بين قطاع كبير من الچيولوچيين، بمهارتهما، وأنهما يعملان معًا كفريق له طريقته المميَّزة.

قال لي دوفو: «لم تُعَرِّفنا بنفسك»، وضعْتُ الكوب، كنت أعرف أنه و«سيمويا» يُحِبَّان قراءة الروايات.

قلت: «أنا.. يمكنكَ أن تدعوني كاتبًا متجوِّلًا».

قالت سيمويا: «تكتب قصصًا وروايات؟».

«نعم».

نظرَتْ إلى حقيبتي.

«معك شيئًا نقرؤه؟».

«لا، فقط أوراق وأقلام، وبعض الملابس».

سألني القبطان: «تكتب عن البحر؟».

«دائمًا».

«رائع»، وملأ كوبي من زجاجته: «اشرَب أحلام البحر»، نظر إلى بحَّارته: «لدينا هنا كاتب متجوِّل، ويكتب عن البحر»، هلَّلَ البحَّارة ورفعوا أيديهم بأكوابهم، رفَعتُ كوبي لهم.

«صِرنا أصدقاء»، قلت لنفسي.

بحسب «ألف جناح للعالم»، لم يجلس القبطان مع «سيمويا» و«دوفو» في مكان كهذا، كل مقابلاتهم كانت في سفينته بالبحر، ربما ما يحدث الآن جزء لا أعرفه من حياتهم، ترتدي «سيمويا» قميصًا أزرق بَحَريًّا، وبنطلونًا قطنيًّا أبيض، يرتدي «دوفو» تي شيرت أخضر فاتحًا، بنطلون جينز أزرق، و«القبطان المذهول» في زيِّه الخاص: ما يشبه چاكيت من قماش أسود خفيف، مفتوح الصدر، مُطرَّز برسم أحمر جهة القلب، على شكل دفَّة سفينة، بنطلون من القماش نفسه، ويضع حول عنقه عقدًا من أحجار بَحريَّة شديدة الزُّرْقة.

سألني القبطان: «أول مرة لك هنا؟ في الدولفين؟».

«نعم».

شرِبَ دفعة كبيرة من «أحلام البحر».

«من أين أتيتَ بالأساس؟».

قالت سيمويا: «من مدينة ساحلية، أعتقد».

قلت: «صحيح».

غمزَتْ بعينها، انتظرْتُ أن تقول شيئًا، انتظرَتْ هي أن أقول شيئًا، كنت مُصِرًّا أن أسمعها تتكلم، يمكنني أن أنتظرها لأطول مما تتخيَّل.

ابتسمَتْ وقالت: «حسنًا، أعرف كاتبًا كاد يموت في التاسعة من عمره، قبل أن يكتب قصة واحدة، لو لا أنَّ أُمه حملَتْه وجرَتْ به في شوارع القرية طوال الليل، حتى عثرَتْ على طبيبة حقنته بإبرة ما، وأنقذَتْ حياته، كانت أمه تقول له طوال الطريق: لا تُغلِق عينيك، حتى لا يخطفه الموت منها».

كِدْتُ أقول «هذا أنا».

قال لي القبطان: «دعني أُخمِّن شيئًا عنك، حيوانك المُفَضَّل هو الذئب، لونك الأزرق، ورقمك 3».

قالت سيمويا: «أثناء دراستك الجامعية، كنت تسافر ليلاً في قطارات الدرجة الثالثة كي تصادف البائعات المتجوِّلات، وشخصيات أخرى صالحة للكتابة، رغم أنَّ هذا يُفوِّتُ عليك أن تصادف الفتيات الجامعيَّات، اللاتي يسافِرْن في أوقات أخرى

بقطارات الدرجة الأولى».

قلت: «وحصلْتُ بالفعل على شخصيات صالحة للكتابة، وأحبَبْتُ كل البائعات اللاتي صادفتهن، كلهن كُنَّ حبيبات وصديقات وأمهات وأخوات، كل واحدة كانت قصة حب».

قالت سيمويا: «تذْكُر الأوقات التي لم يكن معك فيها أيّة نقود؟ وتلك التي كان معك أكثر مما تحتاج؟ ربما ما زال الأمر مستمرًّا معك، ولم تستقرّ على حال».

نقَلْتُ عينيَّ بينهم، ابتسموا، لم أعرف معنى ابتسامة أيّ منهم، هذه الوجوه التي اخترَعْتُها في روايتي «ألف جناح للعالم»، الابتسامات التي شكَّلْتُها بنفسي، كأنما تقول لي «لو أنك اِخترعتنا بالفعل، فماذا نقصد الآن؟ ونحن مُجرَّد ابتسامات بسيطة كما ترى، ها؟».

كانوا يعرفونني من البداية.

أنا لا أعرف عنهم أكثر مِمّا هو موجود في «ألف جناح للعالم»، ولكنهم يعرفون أشياء عن طفولتي وشبابي، وأتوقَّع منهم المزيد، أعجبتني اللعبة.

قال لي القبطان: «في يومٍ ما صادفَ أحد الكُتَّاب شخصية كَتَبَها في رواية، واعتقدَ أنه يعرفُ عنها الكثير، وعندما تحدَّثَ إليها، اكتشفَ أنها تعرف عنه أكثر مِمّا يعرف عنها».

ضربَتْ «سيمويا» يدها على الطاولة، وقالت لي:

«تصلح هذه لأن تكون فكرة رواية، صحيح؟».

«أحب هذه اللعبة».

«تخيَّلْ هذا: كاتب، وليكن أنت، يدخل مقهى، ولتكن هذا الدولفين، فيجد ثلاث شخصيات، كان قد كتبها في رواية».

قلت: «ولتكن الرواية بعنوان ألف جناح للعالم».

«ولتكن الشخصيات، أنا، ودوفو، والقبطان، نظرَتْ إليهما وسألَتْهُما: موافقان؟».

حرَّكَ «دوفو» يده على شكل موجة، ورفع «القبطان» يده بكوب «أحلام البحر».

قالت لي سيمويا: «فتأتي أنت، الكاتب، تجلس معنا، تشرب ‹أحلام البحر›، نتبادل الحديث، وتكتشف أننا، الشخصيات التي كتبتَها بنفسك، نعرف عنك أكثر مِمّا تعرف أنت عَنّا»، صمتَتْ لحظة، قالت: «عندي شغف، برأيك، ماذا يكون إحساسك وقتها ككاتب؟».

تأمّلْتُ عينيها اللوَزيتَين، حاولْتُ أن أعرف إنْ كانت تقصد جِلستنا هذه بالفعل، لم أعرف شيئًا، كانت فقط تنتظر ردِّي، نقلْتُ عينيَّ بين «دوفو» و«القبطان»، لا شيء، نظرْتُ إلى «سيمويا».

قالت: «عندي شغف، ماذا يكون شعورك؟».

قلت: «الدهشة».

ضربَتْ بيدها على الطاولة.

قالت: «نعم، الدهشة، أحبها»، نهضَتْ، رفعَتْ يدها بكوبها، وهتفَتْ للبحّارة:

«الدهشة، الدهشة».

رفع البحّارة أكوابهم وزجاجاتهم:

«الدهشة، الدهشة».

سمِعْتُ صوت موسيقا «كمان» تأتي من مدخل المقهى، كانت الشابة التي رأيتها في بدايات تجوالي، وبطنها عبارة عن آلة كمان تعزف عليها، هي، «الفتاة الكمان».

هلَّلَ البحّارة لها، هتفَتْ لهم بطريقتها:

«الموسيقا للحب».

ردُّوا عليها: «نعم».

مشَتْ إلى منتصف المقهى، وهي تعزف موسيقا راقصة، رقَصَ البحّارة حولها، طلبْتُ من «سيمويا» أن ترقص معي، رغم أني لا أُجيد الرقص، دخلنا وسط الراقصين، امتلأ المكان بفتيات

يُراقصن البَحّارة، اندمجَتْ «سيمويا» مع الموسيقا، تدور حول نفسها، شعرها القصير يضرب خدَّيها، تُغلِقُ عينيها وتبتسمُ لنفسها، وأنا أتأمَّلُها، هي الحياة الحلوة «سيمويا»، وأبتسم، كان من السهل أن أؤدِّي حركات عشوائية بسيطة مع تلك الموسيقا الراقصة، و«الفتاة الكمان» تتنقَّلُ بين الجميع، تهتف بين لحظة وأخرى بشيء عن الموسيقا، فنردُّ عليها: «نعم»، ترفع «سيمويا» وجهها عاليًا، تفتح ذراعيها، وتهتف: «نعم».

مرَّت «الفتاة الكمان» بجوارنا، غمزَتْ لي بعينها، وبدأتْ تعزف موسيقا هادئة، توقفْتُ وأنا أنظر إلى «سيمويا»، أستأذنها بعينيَّ أن أضع يدي على جسدها، ابتسمَتْ، ووضَعَتْ يديها على كتفي، وضعْتُ يديَّ حول خصرها، ارتبكَتْ خطواتي في تلك الرقصة الهادئة، ضحكَتْ «سيمويا» وقالت: «سنفعلها»، نظرنا إلى أقدامنا، دُسْتُ فوق قدمها مرة أو اثنتَين، ضحِكَتْ، بدأتُ أضبط إيقاعي مع خطواتها، حتى تناغَمْتُ معها.

قالت: «الآن أنت ترقص».

أتأمَّلُها على مهل من هذه المسافة القريبة، اكتشَفْتُ في عينيها اللوزيَّتَين لونًا أخضر خفيفًا، لم أذكره في «ألف جناح للعالم»، أعرف أنها لا تضع ماكياجًا، أو عطورًا، وجهها واضح، به لمسة من أشعة الشمس بسبب طبيعة عملها، شمَمْتُ رائحة جسدها الخالصة،

مُبَلَّلَة بعَرَق خفيف مالح، ابتسمْتُ لها، شعرْتُ أني أرقص مع ابنتي، حبيبتي، دهشتي، حلمي، وشغفي.

لو سألني أحد قبل مقابلتي «سيمويا»، ربما أجبْتُ بأنه من السهل أن يُدِير كاتبٌ حوارًا مع شخصية كتَبَها لو أنه قابلَها في الحقيقة، وربما أجبْتُ بأن هذا سيكون صعبًا جدًّا، لم أكن لأتوقف عند احتماليَّة أن يقابل الكاتب شخصية اِخترعها بنفسه في رواية، أُصدِّق أنه يحدث، لكني أَشُكُّ الآن في مسألة الاختراع هذه.

ظللْتُ أرقص مع «سيمويا» وأنا أنظر إليها، دون أن أنطق بكلمة واحدة، وكانت هي لطيفة، لم تدفعني للكلام، كانت ترقص، تبتسم لي بين لحظة وأخرى، تُمرِّرُ عينيها على البحَّارة والفتيات حولنا، تبتسمُ للفتاة الكمان، كان سؤالي الأهَمّ لنفسي في لحظة ما «هل اخترعْتُ سيمويا بالفعل؟»، بدا لي أنَّ كل ما كتبتُه عنها في «ألف جناح للعالم» ليس إلا جزءًا صغيرًا، وغير مؤكَّد، من حياتها، وأنَّ لديها حياة أخرى لا أعرفها، ثم لم يَعُد أيّ سؤال مُهم.

توقَّفَتْ «سيمويا» عن الرقص، ونظرَتْ إليّ، كأنها تحاول أن تتذكَّرَ شيئًا ما.

قالت: «عندي شغف، هل أعرفك؟».

رأيتُ عينيّ تبتسمان لها، ولم أرُدّ.

«أشعر أني أعرفكَ بطريقة ما»، قالت واقتربَتْ مني خطوة، وعاودَت الرقص، هكذا، ببساطة.

هل تلعب «سيمويا» معي الآن لعبة جديدة؟ لا يمكنها أن تعرف عني تلك الأشياء التي ذكرَتْها من قبل، ثم تتساءل إنْ كانت تعرفني بطريقة ما، لم يَبْدُ في عينيها أيّ لؤم، فقط حيرة حلوة، مثلما يشعر أحدنا بأُلفَة تجاه شخص يراه للمرة الأولى، ربما هي تلعب بجديَّة، أو، ماذا؟ لا يهمّ، بدا الأمر كله في النهاية مثل لعبة، وهذا يعجبني.

هتفَت الفتاة الكمان: «الموسيقا للَّعِب»، وعزفَتْ موسيقا سريعة.

قالت سيمويا: «لنَعُد إلى دوفو والقبطان»، اتجهنا إليهما، لمحْتُ في عيني «القبطان المذهول» غيرة ما.

بحسب «ألف جناح للعالم»، كان «القبطان» يحمل مشاعر لطيفة تجاه «سيمويا»، لم أذكر هناك أنه يحبها، لأني لم أعرف طبيعة مشاعره بشكل واضح، فقط أعجبتني تلك الحالة بينهما في الرواية.

اقترَحَ «القبطان» أن يعودوا إلى السفينة، طلبْتُ أن أمشي معهم إليها، أردْتُ أنْ أرى إنْ كانت كما وصفْتُها في روايتي، وقبل هذا أُحِب أن أبقي معهم لأطول وقت ممكن.

خرجنا من «الدولفين»، القمر مكتمل، سبَقَنا طاقم البَحَّارة إلى سفينة تقف عند نهاية لسان صخري يمتدُّ داخل البحر، تطلَّعْتُ إليها.

«ما هي إذًا»، قلت ولم أُخْفِ حماستي، لم يسألني أحد عن شيء.

وصلنا إليها، تأمَّلْتُ تفاصيلها، كانت تقريبًا مثلما وصفْتُها في «ألف جناح للعالم».

انتبهْتُ على صوت «القبطان» يقول:

«حسنًا، كاتب متجوِّل».

إنها الدقائق الأخيرة، ربما دقيقة، نقلْتُ عينيَّ بينهم الثلاثة.

قلت: «ربما نتقابل مرة أخرى».

ابتسمَتْ «سيمويا»، وقالت: «عندي شغف».

كانت هذه إحدى كلماتها المُفَضَّلة في «ألف جناح للعالم»، تُكرِّرها بين كلامها، وتُعَبِّر بها عن شيء تحبه أو تتمنَّاه أو ترغب فيه، حرَّك «دوفو» يده على شكل موجة.

قال: «كل شيء ممكن».

وهذه إحدى كلماته المُفَضَّلة، يقولها بطريقة شخص يحب أن يترك اللعبة مفتوحة، نظرْتُ إلى القبطان، تأمَّلْتُ عينيه المذهولتَين، المُذهلتَين.

قلت: «لا تفقد هذه النظرة».

«أَعِدُك بذلك، كاتب متجوِّل».

نظرْتُ إلى «دوفو».

قلت: «مثلما تقول أنت، كل شيء ممكن».

قال: «وسَهْل».

هذه أيضًا إحدى كلماته المفَضَّلَة، نظرْتُ إلى «سيمويا»، ابتسمْتُ لعينيها اللوزيَّتَيْن.

قلت: «لا تفقدي شغَفِك، سيمويا».

ابتسمَتْ، وقالت: «لن أفقد شغفي».

صعدوا إلى السفينة، أَطلقَ البحَّارة الأشرعة.

هتف القبطان: «إلى البحر».

اتجه إلى الدفَّة ومعه «سيمويا» و«دوفو»، وقَفَا بجواره، أدارَ دفَّتَه، تحرَّكَتْ السفينة، كان الثلاثة يتطلَّعون إلى البحر، تمنَّيْتُ لو ينظر إليَّ أحدهم مرة أخيرة، السفينة تبتعد، وأنتظر، ها، أنا هنا، أنتظر تلك النظرة، هيا، أخيرًا التفتَتْ إليَّ «سيمويا» ولوَّحَتْ، وقفْتُ على أصابع قدميّ ولوَّحْتُ لها، لهم: دهشتي، شغفي، وأحلامي.

عُدْتُ إلى الشاطئ، رأيت «الفتاة الكمان» تخرج من «الدولفين» وهي تعزف، ابتسمَتْ لي واتجهَتْ إلى الشارع، مشيْتُ خلفها وأنا

أحافظ على مسافة بيني وبينها، كي لا أزعجها، عبرَت الشارع ودخلَت بين البيوت الزرقاء، كانت تعزف موسيقا هادئة، التفتَتْ إليَّ وابتسمَتْ قبل أن تدخل شارعًا جانبيًّا، دخلْتُ خلفها، لم أجدها، وما زِلْتُ أسمع موسيقاها، تلفَّتُّ حولي، رأيت «البائع المتجوِّل» يعبر نهاية أحد الشوارع واقفًا فوق عربته، وهو يعزف الهارمونيكا، والكلب يتبعه، جريْتُ إليه، لم أجده، رأيت «شهرزاد» في نهاية شارع متقاطع، واقفة تعزف على القيثارة، مثلما كانت في قصرها، وقبل أن أجري إليها مرَّتْ خلفي «الفتاة الكمان»، ودخلَتْ شارعًا جانبيًّا، نظرْتُ حيث كانت «شهرزاد»، لم أجدها، مَرَّ أمامي «البائع المتجوِّل» ودخل شا رعًا جانبيًّا، توقفْتُ في مكاني أستمع لموسيقاهم، عزفُهم متناغم، يظهرون ويختفون على مسافات متفاوتة، حتى توقفوا عن الظهور، وشعرْتُ بالموسيقا تأتيني من نقطة مُعيَّنة، مشيْتُ إليها، وجدْتُ نفسي خلف البيوت بمواجهة الصحراء، أقف عند بداية مَمَرّ عرضه مترين، ومُحدَّد بصخور صغيرة ملوَّنة، القمر المكتمل يُضيء الصحراء بزُرقة حالمة، والموسيقا تأتيني من نقطة بعيدة هناك.

النبيُّ موسى.

مشيت في المَمَرّ حتى لم أَعُد أرى البيوت خلفي، انقطعَتْ الموسيقا، تطلَّعْتُ حولي: الصحراء، الجبال، السماء، النجوم، القمر، وقبلهم مرَرْتُ بالبحر، الأشجار، الشروق، والغروب.

أعتبر هذا كله أعمالًا إبداعية، البشر أيضًا، الطيور، الحيوانات، والأسماك، وغير ذلك.

الكون بكل تفاصيله عمل إبداعي كبير.

توغَّلْتُ في الصحراء، رأيت هالتَيْن من نور تنزلان معًا جبلًا قريبًا، إحداهما مستديرة، بحجم وجه إنسان، والأخرى أسفل منها بمسافة ذراع أو أكثر قليلًا، مستطيلة الشكل، وبحجم كتاب، توقَّفْتُ أتأمَّلهما، كانت تتحركان بإيقاع خطوات إنسان، فكَّرْت أنهما ربما ترافقان رجلًا صالحًا، مشيْتُ إلى الجبل، وقَفْتُ على بُعْد أمتار قليلة منه، أتأمَّل الرجل الذي وصل الآن إلى السَّفْح، كانت إحدى هالتَي النور حول وجهه، والأخرى حول شيء يمسكه بيده ويضمُّه إلى جنبه، ربما يكون كتابًا، كان يرتدي عباءة بسيطة، مشى باتجاهي، خطواته قوية، عندما وصل إليَّ تمهَّل قليلًا، ربما توقف لحظة، لم أتبيَّن ملامحه بسبب هالة النور، أو ربما تبيَّنتُها أكثر من اللازم، نظَرْتُ إلى ما افترضْتُ أنه كتابًا يمسكه بيده، كان لوحًا حجريًّا، أكثر من لوحٍ واحد في الحقيقة، رأيت هناك سطورًا مكتوبة أو محفورة بلغة لم أرها من قبل، ويده تخفي أجزاء من تلك السطور، قرأت منها: «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي»، «لا تقتل»، دقَّ قلبي بقوة ونظرْتُ إلى الرجل، قلت لنفسي «النبيّ موسى»، ابتسم لي بعينيه، ابتسمْتُ له، أكمل النبيُّ طريقه، تأمَّلْتُه وهو يبتعد بخطواته القوية،

وهالَتي النور، فكَّرْتُ: كان يُكلِّم الله فوق الجبل، لذا، تحيط بوجهه هالة النور، وقد تَسلَّمَ لتوِّه «الوصايا العشر»، فكَّرْتُ أنَّ هذا النبيّ الذي يحمل هذه الوصيَّة «لا تقتل»، سيحزن جدًّا لو عرفَ ما سيكون في العالم مِن قَتْل.

مريم العذراء.

تطلَّعْتُ إلى الجبل، فكَّرْتُ فيما يكون وراءه، مشيْتُ حوله على شكل قوس، كان الليل يتلاشى تدريجيًّا، حتى رأيت انعكاسات نور الشمس تأتيني من خلف الصخور، أدرَكْتُ أنه الصباح هناك، أو الغروب.

صِرْتُ خلف الجبل، شمس الصباح، رأيت طريقًا مفروشًا بالحصى، يمتد حتى يدخل بين مجموعة من التلال، مشيتُ فيه، أوصلني إلى مدخل مدينة صغيرة، توقفْتُ أتطلَّع إليها، بيوتها من طابق واحد، بسيطة، ومتلاصقة في أغلبها، أرضها بيضاء، تتوزَّع فيها بعض أشجار نخيل وزيتون، وهناك جبل يرتفع خارجها على الجهة الأخرى.

دخلْتُ المدينة، شعرْتُ بإيقاعها الداخلي الهادئ، شمَمْتُ رائحة عطريَّة خفيفة، مرَّ طفل يضحك واختفى بين البيوت، ظهَرَ رجل ومعه حمار يضع على ظهره بعض الأخشاب ومشى في عمق الطريق، سمِعْتُ ثغاء شاة، رأيت بئرًا للماء محاطة بحاجز من

الطوب، وهناك حبل ودلو، مرَّتْ بي شابة ترتدي ثوبًا واسعًا، تضع غطاءً للرأس، وتحمل بين يديها إناءً فُخاريًّا، طار سِرْبُ عصافير باتجاه الجبل، الأبواب والنوافذ تنفتح، تطلُّ منها وجوه صباحيَّة، ظهر أهل المدينة في الشوارع، وشعرْتُ بجوع مفاجئ.

رأيت في شارع جانبي، ثلاث عجائز يرتدين عباءات سوداء تتخلَّلُها رتوش خضراء، ويُغطِّين رؤوسهن بجزء من عباءاتهن، كُنَّ جالسات تحت شجرة بمواجهة باب بيت مفتوح، خرجَتْ منه شابة، ترتدي ثوبًا أزرق سماويًّا، واسعًا قليلًا، يصل إلى قدميها، تُحيط خصرَها بحزام لطيف من قماش أخضر، وتُغطي رأسها بشال أبيض ينسدل على ظهرها، كانت تحمل بيدها سلَّة صغيرة من القَشّ، بها خبز.

بمجرَّد أن رأيت الشابة غمَرَتْ الطمأنينة قلبي، وتوقفْتُ في مكاني، شعرْتُ أنَّ كل ذرَّة حزن قد انمَحَتْ من العالم، كأنَّ أحدًا لم يؤذ أحدًا، ليس هناك مخلوق واحد حزين، أو يتألم.

ابتسمَتْ الشابة إلى العجائز الثلاث، وقالت:

«صباح الخير»، قالتها بلُغة لم أسمعها من قبل، لكني فهمتُها.

ردَّت العجائز: «صباح الخير يا مريم».

أدركْتُ لماذا شعرْتُ بهذا السلام عندما رأيتها، الآن أنا أقابل «مريم العذراء».

التقطَتْ «مريم» من سلَّتِها رغيف خبز أعطته إلى العجوز الأولى، ووضعَتْ فوقه بعض حَبَّات التمر، شكرَتْها العجوز، فعلَتْ «مريم» الشيء نفسه مع العجوزين الأُخْرَيَيْن، ثم تلفَّتَتَ حولها كأنما تبحث عن شخص تعطيه من خبزها وتمرها، توقَّفَتْ عيناها عندي، ابتسمَتْ واتجهت إليَّ، بقيْتُ في مكاني، أتأمَّلُها وأبتسم، وصلَتْ إليّ، توقفَتْ أمامي، رأيت نورها الداخلي.

قالت: «صباح الخير».

قلت: «صباح الخير».

سألَتْني: «أنت مسافر؟».

«نعم».

التقطَتْ رغيف خبز من السَلَّة، وضعَتْه في يدي، وفوقه حَبَّات التمر، شكرْتُها وظلَّتْ عيناي مُعَلَّقتَين بنور عينيها، ووداعَتِها، قلت:

«هل تقولين لي شيئًا في سفري؟».

ابتسمَتْ وقالت:

«لا شيء تُقدِّمُه للعالم أفضل من المَحبَّة».

اندفعَ إليها طفل وطفلة يضحكان ويقولان:

«نريد خبزًا وتمرًا».

ابتسمَتْ لهما «مريم»، أعطتهما آخِرَ رغيفَيْن، وآخِرَ حبَّات التمر، ظهَرَ حولهما أطفال آخرون، يضحكون ويطلبون منها: «خبز وتمر».

قالت لهم: «هيا معي إلى البيت، هناك ما يكفيكم جميعًا»، مشَتْ بهم وهم يتقافزون حولها، يضحكون ويقولون: «خبز وتمر» وهي تبتسم لهم، حتى دخلوا البيت.

بقيْتُ في مكاني لبعض الوقت، أرى وجه «مريم» عَبْرَ النافذة وهي تبتسم لأطفال لا أراهم، لكنني أسمع أصواتهم وضحكاتهم، ثم تحرَّكَتْ«مريم» من مكانها، فلم أعُد أسمع أصوات الأطفال.

نظرْتُ إلى الخبز والتمر في يدي، قطعْتُ لقمة، ومعها نصف تمرة، ومشيْتُ باتجاه الجبل خارج المدينة.

عمر بن الخطاب.

شَبعْتُ بالرغيف والتمرات، وصلْتُ إلى الجبل، تتناثر فيه بعض الخُضْرة، رأيت خمس أو سِت عنزات يلعبن معًا، والراعية الصغيرة تلاحق فراشة تطير في دوائر، حَطَّتْ الفراشة على رأس الراعية، فثَبَتَتْ بمكانها ورفعَتْ عينيها تحاول رؤية فراشَتها، ابتسمْتُ لها، ومشيْتُ في مَمَرّ داخل الجبل، دار بي كأني في متاهة، وجوانب الجبل حولي تحجب نور الشمس، وتُغطيني بظِلٍّ رطب، حتى

خرجْتُ أخيرًا إلى الجهة الأخرى، فوجدْتُ الليل، صحراء، القمر هلال، والنجوم صغيرة.

رأيت على مسافة قريبة بقعة نار، تجلس إليها امرأة ترتدي ملابس عربية من زمن قديم، بدَتْ كأنها تنتظر أن ينضج شيء ما في ذلك الإناء على النار، مشيْتُ باتجاهها، سمِعْتُ وقع أقدام قريبة مني ورجلٌ يقول بتأنيب: «ويحكَ يا عمر، ويحكَ يا عمر»، رأيته على بُعد خطوات يدُبُّ بعصا يقبض عليها بيُسراه، ويحمل على ظهره جوالًا، وإلى جواره رجل يقول له: «هَوِّن عليك يا أمير المؤمنين»، كانا يتجهان إلى بقعة النار.

توقفْتُ لحظات أراقبهما، ثم تبعتُهما، أعرف ما أراه الآن، قرأتُه من قبل في كتاب: الرجل الذي يحمل الجوال هو «عمر بن الخطاب»، ومعه مُساعِده، يتجهان إلى المرأة التي كان «عمر» قد رآها في وقت سابق من هذه الليلة، وهي تضع على النار قدرًا به ماء، كي تُوهِم طفليها الجائعين بأنها تطبخ لهما طعامًا، وفي الحقيقة هي تُلهيهما حتى يناما، فليس لديها ما تُطعمهما إياه، عاد «عمر» بعد أن رآها على هذه الحال إلى بيت المال، وها هو قد جَلَبَ الدقيق.

رآني مُساعِدُ «عمر» وانا أمشي خلفهما، لم يمانع وجودي، وَصَلا إلى المرأة، رأيت طفليها نائمين بالقُرْب منها، وقفْتُ في زاوية أراقب، وضعَ «عمر» الجوال على الأرض، فَتَحه، غرف منه دقيقًا وضَعَه في القِدْر، وبدأ يُعِدُّ الخبز.

استندَ «عمر» بكفَّيْه وساقيه إلى الأرض بجوار النار، وظَلَّ ينفخ تحت القِدْر، رأيت الدخان يمرُّ خلال لحيته، كنت أجمع الحطب والأعشاب الجافة مع مُساعِده، استمرَّ «عمر» في العمل حتى نضجَ العجين، رفَعَ القِدْر عن النار، وطلب من المرأة أن تأتيه بطبق وتوقظ طفليها، ملأ الطبق بالخبز وقدَّمَه للطفلين، وقال: «كلوا، كلوا».

ظَلَّ «عمر» رابضًا عند أقدام الطفلين يُطعمهما حتى شَبِعا، ثم داعبَهما حتى ضحِكا وناما.

غطَّاهما «عمر» وقبَّل رأسيهما، جَمَع الخبز الفائض في طبق، وضَعَه بالقرب منهما، وقال للأم: «هل تحتاجين شيئًا يا أختاه؟»، شكَرَتْه المرأة ودَعَتْ له دون أن تعرف مَنْ يكون، استأذنها «عمر» في رغيف واحد واتجه به إليَّ.

قال لي: «مُسافر أنت؟».

قلت:«نعم».

وضعَ الرغيف في يدي وقال:

«هذا لك»، شكرْتُه، قال: «تعرف طريقك، أليس كذلك؟».

«أعرف أني لن أضيع».

تأمَّلني لحظة، وقال:

«يحفظك الله، السلام عليكم»، واستدار ماشيًا.

قلت: «وعليكم السلام، عمر بن الخطاب».

سمِعْتُ «عمر» يبكي وهو يبتعد مع مساعِده ويقول:

«أبكاهما الجوع، وأَسْهَرَهما، ليغفر الله لي».

نظرْتُ إلى الطفلين النائمَين، وبجوارهما طبق مليء بالخبز، كانت أمهما مشغولة بجمع الفُتات من حولهما، ابتسمْتُ ومشيْت.

قابيل وهابيل.

ابتعدْتُ عن الأم وطفليها، وجَدْتُ نبع ماء بجوار جبل صغير، شربْتُ، بلَّلْتُ وجهي، وجلَسْتُ مُستندًا إلى الجبل، أخرَجْتُ من حقيبتي رغيف الخبز الذي أعطاني إياه «عمر»، ظهرَتْ غزالة صغيرة على بُعد أمتار، نظرَتْ إليّ، أمالت رأسها يمينًا ويسارًا، ابتسمْتُ وفعلْتُ مثلها، اقترَبَتْ من النبع، شربَتْ، وجاءت إليّ، تشمَّمَتْني، تشمَّمْتُها، أكلنا الرغيف معًا، سألْتُها عن اسمها، هل هي بمفردها، من أين جاءت؟ كانت تُميل رأسَها يمينًا ويسارًا، ثم نظرَتْ إليَّ نظرة طويلة لتُودِّعني، مسَحْتُ على رأسها: «حسنًا يا صغيرة، كوني بخير»، راقبْتُها حتى امتزجَتْ بالليل والصحراء، رأيت في السماء ألوانًا هادئة تومض، وسمِعْتُ صوت إعصار يتصاعد من كل الاتجاهات، علَّقْتُ حقيبتي في كتفي ووقفْتُ أنتظره، رأيت مخروطًا من ضوء أزرق، يلامس الأرض والسماء، كان على مسافة بعيدة وقادم باتجاهي بسرعة كبيرة، وصلَ إليّ، حملني بداخله،

أدور في درجات من ضوء أزرق، تدور معي أنهار، بحار، أشجار، طيور، حيوانات، لم أشعر بأيّ تعب أو دُوار.

وضعني الإعصار على الأرض، وجدْتُ نفسي في صحراء، تلال ناعمة، صخور، ، وشمس هادئة.

سَمِعْتُ صوتَ غراب، ورأيت فوق إحدى التلال شابين في ملابس من جلد الحيوانات، يقفان بمحاذاة بعضهما بعضًا، تفصل بينهما خطوات قليلة، وكُل واحدٍ منهما ينظر أمامه إلى صخرة مُسَطَّحَة، ومرتفعة قليلًا، إحداهما فوقها خروف مُستلقٍ بهدوء، والأخرى فوقها كومة صغيرة من الثمار، بدا لي أن كلًّا منهما يُقدِّم قربانًا، لمحْتُ الغراب يحوم على ارتفاع قريب، يمكنني أن أُخمِّن ما أراه، تطلَّع الشابان إلى السماء، وانتظرا، هبَطَتْ كتلة نار أكلَتْ الخروف، وتركَتْ الثمار، الآن أتأكَّد أنهما «قابيل»و«هابيل».

التقطَ «قابيل» حجرًا واتجه إلى أخيه، هل يمكنني أن أمنعه من قتل «هابيل»، لِمَ لا أحاول، جريْتُ باتجاههما، ناديتهما، شعرتُ أن صوتي لم يخرج مني، هبطْتُ تلَّة صغيرة، وصعَدْتُ أخرى، بدا «قابيل» بحركاته العصبيَّة مُصممًا على قتل أخيه، «هابيل» مستسلم تمامًا، شعرتُ في لحظة أنه يمكنني أن أمنع هذا القتل، وعند هذه اللحظة تحديدًا انزلقَتْ قدمي، سقطْتُ على ظهري، انزلقْتُ فوق تلَّة عالية بسرعة كبيرة، ابتعدْتُ عن «قابيل وهابيل»، تحوَّلَ لون

الصحراء الأصفر إلى أبيض شفاف، أرى من خلاله ولا أرى، كنت أنزلق عن التلَّة وفي الوقت نفسه أشعرُ أني أصعد وأَعْبُرُ سماءً بعد أخرى، حتى وصلَت.

في الجنة.

أعرف أني الآن في الجنة.

لم أَمُتْ قبل أن أدخلها، أذكر كل ما حدث قبل ذلك، وحقيبتي ما زالت في كتفي.

أعجبني أنْ أجد في الجنة أعدادًا كبيرة جدًّا من البشر، شعرْتُ بالارتياح، تذكَّرْتُ تلك الجماعات الموجودة على الأرض، وكلٌّ منها تدَّعي، تؤكِّد، أن الجنة لهم وحدهم، كأنها حديقة منزلهم الخلفيَّة، كيف يجرؤون؟ من أين لهم هذا اليقين الساذج؟ وما الجمال في أن يكونوا في الجنة وحدهم؟.

حسنًا، لا بد أن في الجنة مكتبة، لم أطلب أنْ تظهر لي على الفور، أردْتُ البحث عنها بنفسي، هذه رغبة أيضًا، أتوقَّعُ هنا مكتبات كثيرة، بحَثْتُ تحديدًا عن «مكتبة الجنة الكبرى».

وجدْتُها، مبنى من خشب ملوَّن، بحجم بيت عادي، مرسوم فيه حروف متداخلة بشكل فني، له مدخل يتسرَّبُ منه نور هادئ، وفوقه لافتة منقوش فيها: «مكتبة الجنة الكبرى».

دخَلْت.

رأيت استاندات ورفوفًا ملأى بالكتب، بينها ممرَّات لا تتَّسِع لأكثر من شخصين، مشيْتُ فيها، بدَت المكتبة أكبر مِمّا يدلُّ شكلها الخارجي، شعرْتُ أنها لن تنتهي ما دُمْتُ أمشي.

كانت بسيطة، ومُقْنِعَة، أعجبني هذا.

فكَّرْت: كان من الممكن، بما أنها «مكتبة الجنة الكبرى»، أن تتوافر فيها خدمة الحصول على الكتاب بمجرد التفكير فيه، أو أن تطير الكتب، بنفسها أو محمولة على أَبْسِطَة صغيرة، وتتجوَّل بين القُرَّاء حتى لا يُرهقهم المشي في الممرَّات، والبحث بين الكتب، لكن، هل يكون هذا مُريحًا وممتعًا بالفعل؟.

البحث عن كتاب جزء من سحر المكتبة، قراءة عناوين أخرى قبل العثور على العنوان المطلوب، اكتشاف كُتُب، ومساحات جديدة للقراءة، البحث في حَدّ ذاته قراءة، ومتعة.

كان يمكن أن تجري أنهار داخل «مكتبة الجنة الكبرى»، يكون فيها بحر، شاطئ، مساحات مفتوحة من عُشب، ورود، أشجار، فراشات، طيور ملوَّنة، أماكن لها طبيعة خاصة، مثل: مكان مُشْمِس، أو مُظَلَّل بغيمة، كوخ داخل غابة، نافذة يداعبها المطر، أَسِرَّة طائرة، شبكة مشدودة بين شجرتَين أو نجمتَين، كان من الممكن أن

تتوفر لرَّواد المكتبة إمكانة الطيران، المشي فوق الماء، أن يجلس الواحد منهم فوق سحابة، أو داخل قارب يتحرك بنفسه دون حاجة لتجديف.

بالنسبة لي، هذا مقبول خارج المكتبة، لكن بداخلها؟ سيجعلها مدينة ملاهي.

هنا، كان الأمر بسيطًا، عميقًا، وبه جوهر «المكتبة».

القراءة لا تحتاج غير شَغَف وكتاب.

الكتابة لا تحتاج غير شغف وقلم وورقة، أو شيء يمكن استعماله في الكتابة.

أمشي بين الممرَّات، أتطلَّعُ إلى العناوين، أشُمُّ الرائحة المحبوبة للكتب، الأرض خشبيَّة، مفروشة بسجاد خفيف كاتم لصوت الخطوات، إضاءة مُريحة للعين، مقاعد بسيطة، طاولات صغيرة، وسائد مُبَطَّنَة موزَّعَة في زوايا على الأرض، سلالم ترتكز على قائمتَين للبحث في الأجزاء المرتفعة من الأرفف.

رأيت كُتبًا موضوعة في بعض الزوايا بفوضي جميلة، أحببْتُ هذا.

أسحَبُ كتابًا، أتصفَّحه ثم أعيده، وأسحَبُ غيره.

أستمتع بذلك الصوت.

واحد من أجمل الأصوات في العالم: صوت صفحة تقلبُها في كتاب.

كان هناك أشخاص يقرأون وهم جالسون على الأرض في زوايا بعيدة، البعض مُتكوِّر داخل الفواصل بين استاندات، أو واقفٌ عند نهاية سُلَّم وقد نسي نفسه مع كتاب.

أحدهم يبتسم أثناء قراءته، يتوقف ليفكر في جُملة، أو معنى، يسند مؤخرة رأسه لرفّ الكتب، ينظر للسقف، أو يُغلق عينيه ويتنفَّس بعمق.

ومن وقت إلى آخر، أسمع الصوت الجميل: صفحة يقلبُها أحدهم في كتاب.

قابلْتُ في أحد الممرَّات شابة بيدها كتاب، ابتسمْتُ لها.

قلت: «مرحبا».

ابتسمَتْ وردَّتْ:

«مرحبا»، نظرَتْ إلى حقيبتي المُعَلَّقة في كتفي.

«أول زيارة للمكتبة؟».

قلت: «نعم».

«تبحث عن شيء مُعيَّن؟».

«لا، فقط أتجوَّل».

«حسنًا، لو احتجْتَ شيئًا، يُمكنكَ أن تسأل بورخيس»، نظرَتْ إلى شاب، يجلس على الأرض عند رفّ من الكتب، وبيده كتاب يقرأ فيه، قالت: «يعمل متطوِّعًا في المكتبة، يكاد لا يخرج منها، يعرف كل شيء هنا تقريبًا».

«اشكرًا لكِ».

«أهلاً بك»، قالت الفتاة ومرَّتْ بجواري.

بدا الشاب المُتطوِّع مألوفًا لي بطريقة ما، فكَّرْتُ أيضًا في اسمه «بورخيس»، وهنا في «مكتبة الجنة»، يمكنني أن أُخمِّن مَنْ يكون، مشيتُ إليه، ينظر في كتابه، بيده قلم رصاص، وحوله أوراق متناثرة، توقفتُ عنده، تأمَّلْتُه لحظة.

قلت: «بورخيس؟».

نظرَ إليَّ.

قال: «مرحبا».

تأكَّدتُ مما خمَّنْتُه، إنه الكاتب «خورخي لويس بورخيس»، في الثلاثينات من عمره، أعرف هذه الملامح، فكَّرْتُ في جُمْلته الشهيرة عن الجنة والمكتبة، ابتسَمْتُ وقلت:

«لا بُدّ أنك سعيد هنا».

ابتسَمَ وقال:

«في الحقيقة أنا كذلك»، تلفَّتَ حوله: «مكتبة، كُتُب»، نظر إليَّ: «لطالما تصوَّرْتُ أنَّ الجنة ستكون شيئًا كالمكتبة، كنت أريد، على الأقلّ، مكتبة في الجنة».

.ها هو يقولها ثانية، أو ربما للمرة الأولى.

قلت: «وحصُلْتَ عليها».

قال: «كنت أعرف أنها موجودة».

تجوَّلْتُ من جديد بين الكتب، قابَلْتُ كُتَّابًا وأشخاصًا أعرفهم، بينهم أصدقاء لي مات بعضهم في سِنٍ مبكرة، قضيْتُ معهم بعض الوقت، وغادرْتُ المكتبة.

عودة إلى الأرض.

عُدْتُ إلى الأرض من إحدى نقاط تماسِّها مع الجنة، حتى الجنة والأرض بينهما نقاط تماسّ، منطقي جدًّا، أحبَبْتُ هذا، وجدْتُ نفسي في مدينتي، الشارع الذي أسكن فيه، والزمن الذي بدأتُ منه تجوالي، تطلَّعْتُ حولي، لم يتغيَّر شيء، مشيْتُ إلى البناية التي أسكنها.

مَرَّ بعقلي شريط تجوالي، كل من صادفْتُهم، وأمنياتهم لي، وقد تحقَّقَتْ كلها، هل تحقَّقَتْ أمنياتي لهم؟ كيف تحدَّثْتُ بكل تلك

اللغات، التي لم أكن أعرفها من قبل، هل تظَلُّ هذه المهارة معي؟ انتبَهْتُ إلى أني لم أكتب شيئًا خلال جولتي، ولم أنَمْ دقيقة واحدة.

فكَّرْتُ في الجُملة التي صادفْتُها بلُغات كثيرة، وفيها يكتب شخصٌ ما اسمه مع اسم مَنْ يُحِب، أُدرِكُ الآن أن هذه الجملة كانت موجودة طوال الوقت، وفي كل مكان، بدَتْ لي واحدة من الجُمَل التي بُنِيَ عليها العالم، وسيظَلُّ بخير ما دامت فيه، أثقُ أنها موجودة أيضًا بكل اللُّغات التي لم أصادفها خلال تجوالي.

سمِعْتُ خَفْقَ أجنحة في الهواء، عرفْتُه، رأيت «عباس بن فرناس» قادمًا باتجاهي، وهو يطير على مسافة قريبة، ابتسمْتُ وتوقفْت، قَلَّلَ من سُرْعَته، رفعْتُ ذراعي لأعلى، اقترَبَ مِنّي، التقَتْ عيناي بعينيه، كان يبتسم، مرَّرْتُ أصابعي بين ريش جناحه، اِرتفعَ من جديد، دارَ في الهواء دورتَيْن، وابتعد، ظلَلْتُ أرقبه حتى اختفى في السماء.

«طِرْ يا ابن فرناس»، ومشيْت.

توقفْتُ عند مدخل البناية التي أسكنها، نظرْتُ إلى السماء، وابتسمْتُ لله..

في الحقيقة كنت أُجاوبُ ابتسامة الله لي.


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

أحد أحلامي الكبيرة أن أتجوَّل في العالم، كنت أؤجل هذا الحلم لانشغالي بكتابة رواية، أو قصة ما، وأنتظر أيضًا أن يتوفر لديَّ بعض المال الكافي، لكني اكتشفتُ أني لن أنتهي أبدًا من الكتابة، هناك دومًا ما أكتبه أو أفكر في كتابته، كما أني لستُ في حاجة إلى ما يُسمَّى "مال كاف"، أنا أريد أن أتجوَّل مثل متشرِّد وليس سائحًا.. يمكنني أن آكل من الطعام الحُرّ الموجود على هامش العالم، أشرب من مائه الجاري، أنام إلى جانب جدار، في حديقة عامة، على شاطئ نهر، بحر، أو وسط متشرِّدين.

❁❁❁

كاتبٌ يتجوَّل في العالم على قدميه، يتنقل عَبْرَ الزمان والمكان، يصادف شخصيات مدهشة، و يبلور لحظات المعرفة حين تغمر الكون بأضوائها البديعة .. الرواية دعوة للتجوال في عالم مليء بالدهشة، يتكشف شيئًا فشيئًا ليصبح حلمًا جميلًا لواقع يمكن أن نترسَّمه.

في روايته الجديدة، يصنع "محمد الفخراني" مزيجًا خاصًّا من الواقع والخيال، ليس من المهم توصيفه، ما يُهِمُّ هو التجوال فيه بمزاج حُرّ.



محمد الفخراني، كاتب مصري، وُلِدَ في 23 مارس 1975، صَدَرَ له: "بنت ليل"، "فاصل للدهشة"، "قبل أن يعرف البحر اسمه"، "قصص تلعب مع العالم"، "طُرُق سريَّة للجموح"، "ألف جناح للعالم"، و"عشرون ابنة للخيال"، حصل على عدة جوائز، منها: جائزة الدولة التشجيعية للقصة، عام 2012، وجائزة معهد العالم العربي للأدب الشاب، عام 2014.

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف





الدار المصرية اللبنانية